الباب الثالث

في ذكر الظلام الذي يدخل على ذوات العباد وأعمالهم وهم لا يشعرون

سمعته ﷺ **يقول**: أرسلني شيخي سيدي عمر بن محمد الهواري يومًا إلى [عرصة][1] له بقصد أن أنظر إلى خدمة الناس كان آجرهم للخدمة فيها، وأوصاني أن أنظر إلى خدمتهم، وأكَّد عليّ في ذلك، فلما كان وقت صلاة الظهر جاء إلينا [فطينًا][2] وبقي معنا هنالك إلى أن فرغ الخدام من الخدمة وأعطاهم أجرتهم، فلما خرجوا نظرت إليه فإذا هو متغير، ووجهه عليه أثر الغضب حتى خفت منه.

فقال لي: هل رأيت اليوم شيئًا؟

فقلت: ما رأيت شيئًا، أيّ شيء؟

فقال لي: انظر، لعلك رأيت شيئًا؟

فقلت: ما رأيت شيئًا.

فقال: أيّ شيء رأيت في خدمة الخدام؟

فقلت: حين كنتَ غائبًا قبل أن تجيء إلينا كانوا يخدمون خدمة ضعيفة في غاية الضعف، وحين قدمتَ ورأوك جعلوا يخدمون فوق طاقتهم.

فقال لي: إنك رأيت اليوم أعمال الفاسقين وأعمال المحرومين.

فأمّا الفاسقون: فهم الذين يعبدون وتخرج العبادات والطاعة من ذواتهم بغير نية ولا قصد، بل جرت عادة الذات بذلك، فصارت حركاتهم وسكناتهم في حال الطاعة لأجل العادة على وفق الطبيعة من غير غرض من الأغراض، فلا غرض عندهم لا صحيح ولا فاسد، فليست عبادتهم لله ولا لغير الله، وإنما عبادتهم لمجرد الطبع والعادة، كمن كان شبعان ريان لا يحب أكلاً ولا يشتهيه ولا تطيقه ذاته، ثم حضر مع أناس في النزهة، فجعلوا

---

(١) في (ب): جنان.

(٢) سقطت من (أ).

يتحركون فيما يأكلون وجعل هذا الرجل يتحرك معهم، فهم يتحركون لأجل الأكل ونفع أنفسهم، وهو يتحرك معهم لا لأجل الأكل؛ لأنه لا يريده، بل والفرض أنه لا يطيقه، ولا لأجل معونة إخوانه المؤمنين؛ لأن هذه نية صالحة، ولكن الحامل على حركته أنه لما رأى الناس يتحركون تحركت ذاته طبعًا وعادة، فهذه أعمال الفاسقين.

وأمّا المحرومون: فهم الذين تكون أعمالهم لنفع أنفسهم ولتحصيل أغراضها، ولا تكون لله ﷻ وهذه الأعمال لا تزيد إلا بعدًا من الله ﷻ لأنها مخالفة لسر حقيقة الذات، فإن سر حقيقة الذات أنها ذات مخلوقة لله، مفعولة له، مملوكة له، منسوبة إليه لا نسبة لغيره فيها بوجه من الوجوه، فلو جرت أفعالها على هذا السر لكانت كلها لله خالصة، فكأنه يقول: لا حظ لي في شيء من أفعالها، هي كلها مخلوقة لله، فتخرج عنه الأعمال عند صدورها على سر حقيقة الذات.

وأمّا أنه يقول: ذاتي هي لله وأفعالها لي، فينويها لنفسه ولتحصيل أغراضه، فهذا لا يجري فعله على سر حقيقة ذاته، ولا يمكنه أبدًا أن يوفي بشيء من حقوق الله؛ لأنه يفعل لغرض نفسه لا للقيام بحق الله، فقد انقطع عن الله في أفعاله، فتنقطع عنه العطية من ربه ﷻ فيكون محرومًا من المحرومين.

فقلت: فقد وردت آيات كثيرة وأحاديث لا تحصى في الترغيب بذكر الثواب وجزيل الأجر لمن فعل الفعل، ولو كان كما قال سيدي عمر بن محمد الهواري لم يرد شيء منها بذلك لما فيه من القطع عن الله ﷻ.

فقال ﷺ: لا يرد علينا ما في الآيات والأحاديث؛ لأنه لم يقل فيها: اعملوا لأنفسكم وأنا أثيبكم على أعمالكم في هذه الحالة بجزيل العطية، وإنما قال: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة وأنا أثيبكم، فنيتنا في أفعالنا تكون لله ﷻ ولعظمته وكبريائه، ولما أسدى إلينا من العطايا الجسيمة، وهو يثيبنا عليها ﷻ فضلاً منه ومِنَّة.

وإنما يرد علينا ما في الآيات والأحاديث إن لو كانت العبادة مع الإخلاص لا أجر فيها ولا يثاب العبد عليها، فحينئذ يرد ما ذكرتم، وما أقبح العبد وأجهله حيث يظن أن يحصل الحسنات ويكسب الأجر بأفعاله، وهو يعلم أن أفعاله لم يحصل منها ولا شعرة، فإذا كانت الذات مخلوقة لله والأفعال مخلوقة لله، فكيف يسوغ لنا أن نعتمد في الحسنات على

أفعالنا المخلوقة له ﷻ ولا نعتمد على مجرد فضله ورحمته؟! ولكن الغفلة عن الله تعمي البصائر، والعياذ بالله.

قال ﷺ: وقد كان بعض العباد يعبد الله بقصد نفع نفسه وأن يعطيه ما يحب، فدام على ذلك عشرين سنة، وكان لحاحًا في الطلب، فما ظهر له شيء مما يطلب، فتحير في أمره.

فقال: كيف يكون هذا، أنا أطلب الله في مسألة عشرين سنة ولم يعطني شيئًا ولا رحمني بها؟! فألقى الله ﷻ عليه رحمته، ورزقه في تلك اللحظة معرفة نفسه وأفعالها.

فقال: إني لأحمق، إذا كان الله ﷻ خلق الذات وخلق أفعالها، وخلق الصحة فيَّ، وخلق المكان الذي أعبده فيه، وخلق الماء الذي أتوضأ به، وخلق الثوب الذي أستتر به، وخلق الزمان الذي أعبده فيه، فأيّ شيء عملت حتى أطلب عليه أجرًا وأستحق بسببه ذكرًا؟ كلا والله، ما فعلت شيئًا، ولكني عمدت إلى أفعال الله فيّ، فقطعتها عنه ثم نسبتها إليّ، وجعلت أطلب بها عنده وأتمنى بها عليه، حتى صرت أقول: وقفت أنا ببابه عشرين سنة وما أعطاني شيئًا، أنا تائب إليك يا رب، أنا تائب إليك يا رب، أنا تائب إليك يا رب، فلما تاب إلى الله، وعلم منه تعالى التوبة الصحيحة رحمه الله تعالى بأن أعطاه كل ما يتمنى، وزاده المعرفة به التي لا تعارضها جنة ولا غيرها.

* **قلت**: ومثل هذه الحكاية ما ذكره الحافظ السيوطي في «البدور السافرة» في باب من نوقش الحساب هلك، فذكر فيه حديثًا عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ ﷻ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ فِي جَزِيرَةٍ مَنَ الْبَحْرِ، وَأَعْطَاهُ اللهُ فِيهَا عَيْنًا عَذْبَةً، وَأَنْبَتَ لَهُ شَجَرَةً مَنَ الرُّمَّانِ تُثْمِرُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ رُمَّانَةٍ يَأْكُلُهَا وَتَكْفِيهِ فِي الْقُوتِ، فَبَقِيَ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ الْمُدَّةَ السَّابِقَةَ، وَلَا حَصَلَ لَهُ فُتُورٌ وَلَا مَلَلٌ، فَلَمَّا مَاتَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷻ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَفَضْلِي. فَقَالَ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي وَعِبَادَتِي لَكَ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ، فَنَاقَشَهُ اللهُ تَعَالَى الْحِسَابَ، فَقَالَ لَهُ ﷻ: عِبَادَتُكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ لَا تَقُومُ بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمْتُ بِهَا عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَخْرَجْتُ لَكَ عَيْنًا عَذْبَةً وَسْطَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ، فَبِأَيِّ حِيلَةٍ اسْتَوْجَبْتَ عَلَيَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ؟ وَأَنْبَتُّ لَكَ شَجَرَةً تُثْمِرُ لَكَ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنَّمَا تُثْمِرُ لِغَيْرِكَ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، فَبِأَيِّ حِيلَةٍ اسْتَوْجَبْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ؟ وَأَطَلْتُ عُمْرَكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَإِنَّمَا يَعِيشُ غَيْرُكَ أَنْقَصَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوَّيْتُكَ عَلَى الْعِبَادَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ، وَغَيْرُكَ لَا يَقْوَى عَلَيْهَا، وَطَرَدْتُ عَنْكَ الشَّيْطَانَ وَسَلَّمْتُكَ

مِنْهُ، وَكَمْ أَهْلَكَ مِنَ النَّاسِ غَيْرَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ الصِّحَّةَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ وَلَمْ أُعْطِهَا لِغَيْرِكَ، وَخَلَقْتُ ذَاتَكَ وَلَمْ تَكُ شيئًا، وَخَلَقْتُ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكَ نِعْمَتِي، أَدْخِلُوهُ جَهَنَّمَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى جَهَنَّمَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ هَالِكٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ: رُدُّوه وَأَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ لِي»[1] هذا معنى الحديث، وقد طال عهدي به.

ثم قلت لشيخنا ﷺ: أيّ شيء أقبح: عبادة الفاسقين أو عبادة المحرومين؟

فقال: عبادة المحرومين أفضل وأحسن لمسألة واحدة، وهي أن الله تعالى رءوف رحيم لطيف، فإذا رأى العبد داوم على عبادته لتحصيل أغراضه، فإنه يرحمه بفضله بأن يعرفه حقيقة الأمر في ذاته وفي أفعاله حتى يتوب إلى الله، ويتوجه بعبادته إليه تعالى، كما وقع للعابد عشرين سنة وخلائق لا يحصون كثرة.

فقلت: وبرحمته ولطفه يعطيهم الأجور التي في الأحاديث والآيات، فإنه بالوجه الذي رحمهم حتى عرفهم به يرحمهم ويعطيهم الأجر.

فقال ﷺ: إن كان مرادك يعطيهم الأجر إذا أعطاهم المعرفة بما في حقيقة الأمر فنعم، وإن كان مرادك يعطيهم الأجر وهم منقطعون منه ويرون الفعل منهم ويرون أنهم يستوجبون على الله أجرًا فلا تظن هذا أبدًا.

فقلت: فهذا رجل سمع في الحديث من يفعل كذا فله كذا، ومن يترك كذا فله كذا، ويعتقد أنه لا يتحرك إلا بإذنه تعالى، فبادر عند سماع الحديث لامتثال ما فيه وليحصل له الأجر الذي فيه.

فقال ﷺ: إن كانت حرية نظره وقصده إلى تحصيل أمر ربه ونية الأجر تابعة بحيث إنه لو لم يرِدْ أجر في الحديث لفعل، فهذا لا ضرر عليه، وإن كانت حرية نظره وقصده إلى تحصيل الأجر ونية الامتثال تابعة حتى إنه لو لم يرِدْ أجر لترك الفعل، فهذا هو الذي نتكلم عليه وهو الذي نذمه؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت حرية نظره وقصده إليهما معًا

---

(١) أخرجه المبارك في «مسنده» (٣٦)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (ص٥٤، رقم٤٥).

فهذا يعطى أجره بشرط أن ينظر بعينين صحيحتين:

العين الأولى: تنظر إلى الفعل وأنه طاعة، وأنه وعد عليه بكذا من الأجر، وهذه لا يحتاج العامل إلى توصيته بها.

العين الثانية: تنظر إلى أنه تعالى هو خالقه وخالق ذلك الفعل، وأنه تعالى وعده بالثواب، وأنه تعالى في ذلك متفضل لا يجب عليه شيء فيما وعد به، وأنه مع ذلك مختار إن شاء رحم وإن شاء عذب، ولكن العبد لما سمع أمر مولاه امتثله واحتسب على ربه الأجر والخير، فإذا نظر العبد إلى ربه هذا النظر الحسن الجميل فلا يضره نظره إلى الثواب، فيعطيه ربه أجره ويثيبه بجزيل الحسنات.

فقلت: فإن هذا القسم اختلف فيه العلماء، فذهب الغزالي ـ رحمه الله ـ في كتاب «منهاج العابدين» إلى أنه لا أجر فيه، وجعله من باب التشريك للعمل، وهو عنده بمنزلة الرياء المحبط للعمل، وذهب أبو بكر بن العربي في «سراج المريدين» والقرافي في «القواعد والفروق» رحمهما الله إلى أنه يؤجر عليه، وأن ذلك التشريك لا يضر، وأنه ليس بمثابة الرياء المحبط للعمل.

فقال ﷺ: الصواب مع ابن العربي والقرافي، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهذا قد أحسن عملاً فلعمله نور إذا خرج من ذاته، ولنيته الصالحة ونظره إلى ربه بالعين الثانية نور آخر زائد على نور العمل، فكيف يحرم الأجر؟!.

وأكمل منه من لم ينظر إلى الأجر وهو القسم الأول، وأكمل منهما معًا من انقطع عن العمل بعد نيته، فلم يشعر بالعمل إلا عند الشروع فيه، وعند ذلك أنه نوى لله ﷻ ثم غاب عنه بمشاهدة خالقه ﷻ فجال فكره في عظمته تعالى وكبريائه، نسأله تعالى أن يهب لنا ذلك بمنه وفضله، وكرمه وجوده.

قال ﷺ: وهذه المشاهدة توجب محبة الله ﷻ ومحبته ﷻ توجب الانقطاع إليه، والانقطاع إليه يوجب أن يكون الأجر منه تعالى على ما يليق بقدره ﷻ لا على ما يليق بقدر العبد، وعدم المشاهدة توجب الغفلة عنه ﷻ وهي توجب الانقطاع إلى الذات، والانقطاع إلى الذات يوجب أن يكون الأجر على قدر العبد لا على قدر الرب ﷻ ولهذا ترى رجلين كل منهما يصلي على النبي ﷺ فيخرج لهذا أجر ضعيف، ويخرج لهذا أجر لا يكيف ولا يحصى، وسببه ما قلنا.

ـ فالرجل الأول خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع الغفلة وعمارة القلب بالشواغل والقواطع، وكأنه ذكرها على سبيل الألفة والعادة، فأعطي أجر ضعيف.

ـ والثاني خرجت منه الصلاة على النبي ﷺ مع المحبة والتعظيم.

أمّا المحبة: فسببها أن يستحضر في [قلبه][1] جلالة النبي ﷺ وعظمته، وكونه سببًا في كل موجود، ومن نوره كل نور، وأنه رحمة مهداة للخلق، وأنه رحمة الأولين والآخرين، وهداية الخلق أجمعين إنما هي منه ومن أجله، فيصلي عليه لأجل هذه المكانة العظيمة لا لأجل علة أخرى ترجع إلى نفع ذاته.

وأمّا التعظيم: فسببه أن ينظر إلى هذه المكانة العظيمة، وبأيّ شيء كانت، وكيف ينبغي أن تكون خصال صاحبها، وأن الخلائق أجمعين عاجزون عن تحمل شيء من خصالها؛ لأنها ارتقت حقائقها فيه ﷺ إلى حد لا يكيف بالفكر فضلاً عن أن يطاق تحمله بالفعل، فإذا خرجت الصلاة من العبد على النبي ﷺ فإن أجرها يكون على قدر منزلة النبي ﷺ وعلى قدر كرم الرب ﷻ لأن محرك هذه الصلاة والحامل عليها هو مجرد تلك المكانة العظيمة، فكان الأجر عليها على قدر تلك المكانة الحاملة عليها، وصلاة الأول كان المحرك عليها حظ نفسه وغرض ذاته، فكان الأجر عليها على قدر محركها ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف:٤٩].

هكذا عمل العبد بينه وبين ربه، فإذا كان المحرك له هو عظمة الرب وجلاله وعلوه في كبريائه، فالأجر على قدر عظمة الرب ﷻ فإذا كان المحرك له والحامل عليه مجرد غرض العبد وما يرجع لذاته، فالأجر على قدر ذلك، والسلام.

فقلت: فهل ينتفع النبي ﷺ بصلاتنا عليه أو لا ينتفع؟ فإن هذه مسألة قد اختلف العلماء فيها ﷺ.

فقال ﷺ: لم يشرعها الله ﷻ لنا بقصد نفع نبيه ﷺ وإنما شرعها الله لنا بقصد نفعنا خاصة، كمن له عبيد فنظر إلى أرض كريمة لا تبلغها الزراعة، فرحم عبيده فأعطاهم تلك الأرض على أن يكون الزرع كله لهم يستبدون به، ولم يعطهم ذلك على وجه الشركة،

---

(١) في (ب): فكره.

فهكذا حال صلاتنا عليه ﷺ فأجرها كله لنا، وإذا شعل نور أجرها في بعض الأحيان واتصل بنوره ﷺ تراه بمنزلة شيء راجع إلى أصله لا غير؛ لأن الأجور الثابتة للمؤمنين قاطبة إنما هي لأجل الإيمان الذي فيهم، والإيمان الذي فيهم إنما هو من نوره ﷺ فصارت الأجور الثابتة لنا إنما هي منه ﷺ ولا مثال له في المحسوسات إلا البحر المحيط مع الأمطار إذا جاءت بالسيول إلى البحر، فإن ماء الأمطار من البحر، فإذا رجع إلى البحر فلا يقال: إنه زاد في البحر.

فقلت: فإن بعض العلماء استدل على أنه ﷺ ينتفع بها، بأن قاسها على النفع الحاصل له ﷺ من الخدمة والولدان إذا كان في الجنة، فكما أنه ﷺ ينتفع بالنعم والفواكه المحمولة إليه في الظروف، فكذلك ينتفع ﷺ بالأنوار والأجور المحمولة إليه في هذه الحروف، فالحمل هناك وقع بالأيدي الحاملة للظروف، وهنا وقع بالأفواه الحاملة للحروف.

قال: ولا تزيد حالته في دار الدنيا على حالته ﷺ في الجنة حتى يمتنع القياس.

فقال ﷺ: ومن أين هم أولئك الخدمة والولدان؟ إنما هم من نوره ﷺ بل الجنة وكل ما فيها من نوره ﷺ وإنما يصح ما قاله هذا العالم إن لو كان أولئك الخدمة مباينين له ﷺ ويكون إيماننا مباينًا له ﷺ وليس كذلك.

قال ﷺ: ومن علم كيف هو النبي ﷺ استراح.

قال ﷺ: وترى الرجل يقرأ «دلائل الخيرات» فإذا أراد أن يصلي على النبي ﷺ صوَّره في فكره وصوَّر الأمور المطلوبة له كالوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود، وغير ذلك مما هو مذكور في كل صلاة، وصوَّر نفسه طالبًا لها من الله تعالى، وقدَّر في فكره أن الله يجيبه ويعطيه ذلك لنبيه ﷺ على يد هذا الطالب، فيقع في ظن الطالب أنه حصل منه للنبي ﷺ نفع عظيم، فيفرح ويستبشر ويزيد في القراءة، ويبالغ في الصلاة، ويرفع بها صوته، ويحس بها خارجة من عروق قلبه، ويعتريه خشوع، وتنزل به رقة عظيمة، ويظن أنه في حالة ما فوقها حالة.

وهو في هذا الظن على خطأ عظيم، فلا يصل بصلاته هذه إلى شيء من الله تعالى؛ لأنها متعلقة بما ظنه وصوّره في فكره، وظنه باطل، والباطل لا يتعلق بالحق ﷻ وإنما يتصل بالحق ﷻ ما هو حق في نفس الأمر، بحيث إن الشخص لو فتح بصره لرآه في نفس الأمر،

فكل ما كان كذلك فهو متعلق بالحق ﷻ وكل ما لو فتح الإنسان بصره لم يره فهو باطل، والباطل لا يتعلق بالحق ﷻ.

فليحذر المصلي على النبي ﷺ من هذه الآفة العظيمة، فإن أكثر الناس لا يتفطنون [لها] ويظنون أن تلك الرقة والحلاوة الحاصلة لهم من الله ﷻ وإنما هي من الشيطان؛ ليدفعهم بها عن الحق ﷻ ويزيدهم بها بعدًا على بعد، وإنما ينبغي أن يكون الحامل محبته ﷺ وتعظيمه لا غير، وحينئذ يشتعل نورها كما سبق، وأمّا إن كان الحامل عليها نفع العبد فإنه يكون محجوبًا وينقص أجره كما سبق، وكذا إن كان الحامل عليها نفع النبي ﷺ فإن صلاته حينئذ لا تتعلق بالحق ﷻ ولا تبلغ إليه كما سبق، والله الموفق.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن للأعمال أجورًا، وإن للأجور أنوارًا، وإن للأنوار اتصالاً بالذات اليوم في هذه الدار، فإذا كانت الأعمال خالصة لله تعالى، وجرت على سر حقيقة الذات كما سبق، فإن أنوار أجورها تسطع على الذات، فتفطن الذات بذلك، فيحصل لها خشوع وقشعريرة وبكاء وغير ذلك مما يقتضيه ذلك النور الساطع، فيعلم صاحب البصيرة بذلك النور أن العمل قبل، وأن أجره يبلغ من القدر كذا وكذا.

وأكثر الناس يظنون أن الأجور لا تعلم إلا في الدار الآخرة، وذلك في حق المحجوبين، وأمّا غير المحجوب فذلك مكشوف له غير خفي عنه.

قال: وأمّا إذا كانت الأعمال لغير الله تعالى ولم تجر على حقيقة الذات فإنها عناء وتعب، فلا أجور لها ولا يسطع بها على الذات نور.

قال ﷺ: فليختبر [العاقل] العالم قلبه عند العمل، فإن لكل عمل وإن دقَّ أجرًا، ولأجره نور ساطع تفطن الذات به لا محالة، فإن كان القلب عند العمل معمورًا بالشواغل والقواطع فليعلم أن الله قد حرمه أجره، ولذلك ملأ قلبه بالشواغل، وإن كان القلب فارغًا من الشواغل منقطعًا نحو الحق ﷻ فليعلم أن الله تعالى قد أنجز له أجره.

قال ﷺ: وترى الطالب يسافر من قطر إلى قطر؛ ليحصل العلم بنية أن يدرك الجاه والكلمة النافذة أو الدنيا أو غير ذلك من الأغراض الباطلة، ويبقى على هذه النية السنين المتطاولة، فيحرمه الله تعالى من نور العلم، فلا يكون من الراسخين فيه أبدًا؛ لأنه لا يدرك حقيقة العلم إلا من توجه إليه بباطنه، وباطن هذا معمور بأغراضه وشواغله، والذي يتحرك في العلم منه هو ظاهره فقط.

والعلم سر من الأسرار، فلا يدركه الظاهر أبدًا، فكذلك أجور الأعمال التي ليست بخالصة لله تعالى، فلا يدركها العبد أبدًا؛ لأن الأجور من أسرار الله تعالى، والظاهر بدون الباطن لا يدرك الأسرار أبدًا، والله الموفق.

ـ **وسألته** ﷺ: لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله ﷻ فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول: [وحق][1] سيدي فلان، كسيدي عبد القادر الجيلاني، أو سيدي أبي يعزى، أو سيدي أبي العباس السبتي وغيرهم ـ نفعنا الله بهم ـ وإذا أراد أن يحلف أحدًا ويؤكد عليه في يمينه يقول: احلف لي بسيدي فلان، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدي فلان، وهم في ذلك كله منقطعون عن الله ﷻ وإذا قيل لهم: توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعًا، فما السبب في ذلك؟

فقال ﷺ: أهل الديوان من أولياء الله، فعلوا ذلك عمدًا؛ لقوة الظلام في الذوات وكثرة المنقطعين عن الله ﷻ فصارت ذواتهم خبيثة، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم ﷻ أن تكون ذاته طاهرة؛ لأنه تعالى يجيب من دعاه إذا انقطع إليه باطنًا وقت الدعاء.

وإجابته تكون بأحد أمرين:

إمّا: أن يعطيه ما سأل.

وإمّا: أن يبين له سر القدر في المنع إذا منعه.

وهذا [كله] لا يكون إلا للأولياء، ولا يكون [للبعداء][2] المحجوبين، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمرًا، ومنعها ولم يطلعها على سر القدر في المنع، لربما وقع لها وسواس في وجود الحق ﷻ فتقع فيما هو أدهى وأمرّ من عدم قضاء حاجتها، فكان من المصلحة ما فعل أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين؛ لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم.

---

(١) في (ب): وحياة.

(٢) في (ب): للفقراء.

قال ﷺ: ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام في ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلاً، ويذهب بها إلى ضريح ولي من أولياء الله تعالى، فيطرحها عنده ليقضي له حاجته، وكم من فقير محتاج يلقاه في الطريق ويطلب منه [متاع الله][1] في سبيل الله لوجه الله، فلا يعطيه درهمًا واحدًا حتى يبلغ للولي فيطرحها عند رأسه، وهذا من أقبح ما يكون، وسببه أن الصدقة لم تخرج لله ﷻ وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم وجوده العظيم؛ إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه، ولكن لما كان الحامل عليها والداعي إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خص بها موضعًا دون موضع؛ لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجودًا وعدمًا.

قال ﷺ: وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدى للصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء، فإذا هو من الدنانير ثمانون دينارًا، ومن الغنم ثلاثمائة وستون شاة، ومن البقر اثنان وسبعون ثورًا، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين، وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم.

قال ﷺ: وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله ﷻ الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها، وهي منحصرة في ثلاثمائة وستة وستين سببًا، كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه ﷻ.

فقلت: وهل حضركم الآن منها شيء؟. **فقال** ﷺ: اكتب:

الأول: الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله ﷻ.

الثاني: التوسل إلى الصالحين بالله ﷻ ليقضوا الحاجة، فيقول الزائر: قدمت لك وجه الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي، وإنما كان سببًا للانقطاع أن الزائر قلب الواجب وعكس القضية، فإنه كان من حقه أن يتوسل لله ﷻ بأوليائه لا أن يعكس.

الثالث: زيارة الصالحين، وعلى الزائر دين فرض، كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه، فترك قضاءها الذي هو حق الله وفيه نور الله وسره تعالى الذي يرحمه به، وذهب إلى زيارة صالح، ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام.

---

(١) في (ب): الحسنة.

الرابع: الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما، فيقول في نفسه: لا أعصي هذا الظالم؛ لأني إن عصيته قتلني أو منع رزقي، أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه، ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفي ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره في فعل من الأفعال، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى، وبقدر ما يقوى هذا النظر في العبد يقوى قربه من ربه تعالى، وبقدر ما يقل أو ينعدم يكون بعده من الله ﷻ وانقطاعه.

الخامس: الطمع في الظالم، فيتقرب إليه لينال منه رزقًا، ولو تحقق بأن الله ﷻ هو الرزاق لم يصدر منه ذلك.

السادس: [النصرة][1] للكافرين، فيلهمهم مصالحهم في دنياهم بأن يرى لهم طريقًا ونحوه، فإنه من أسباب الانقطاع عن الله ﷻ.

* **قلت**: وما رأينا من نصح ظالمًا إلا وكانت عاقبة أمره خسرًا، ونذكر ها هنا قصة سفيان الثوري ﷺ مع الذي أراد أن يوقظ [حرسيًّا][2] للصلاة، فقال له سفيان: لا توقظه، دعه هذه الساعة نسترح منه ومن شره فيها.

السابع: عدم النصيحة للمسلمين، فيرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له.

الثامن: استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله ﷻ فمن أحس بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سببًا من أسباب الانقطاع.

التاسع: طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل و[أحقر][3].

وقد كان السلف الصالح ﷺ يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز، كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال.

وأمّا من طلب الدنيا [بالزور][4] والكذب والفجور والإيمان الحانثة، فقد طلبها

---

(١) في (ب): النصيحة.
(٢) في (ب): شرطيًا.
(٣) في (ب): أصغر.
(٤) في (ب): باللدد.

بمعاصي هي أخس منها ـ أي: من الدنيا ـ فمن أحس بذلك من نفسه فليتب إلى الله ﷻ فإن الدنيا لا تدرك إلا بما هو أعز منها.

العاشر: أن تكون أعمال العبد وطاعاته بقصد أن يرحمه الله بها، وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه، لا بقصد وجه الله الكريم وجوده العظيم، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا من رحمه الله ﷻ جعلنا الله منهم بمنه وفضله.

قال ﷺ: ولو لم يخلق الله جنة ولا نارًا لتبين من يعبده ممن لا يعبده، ولكانت عبادة الذي يعبده خالصة لوجهه الكريم، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوهما، فضلوا عن السبيل.

الحادي عشر: [المعاصي][1] في حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها، فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه، وقال في قلبه: هذا بيت الله، لم تصدر منه فيها معصية.

الثاني عشر: اللواط، وستأتي ـ إن شاء الله ـ مفسدته وأنه لا مزيد عليها.

الثالث عشر: ضرب الرجل امرأته من غير ذنب، فلذلك الضرب سبب في الانقطاع لما لها عليه من الحقوق.

الرابع عشر: المنة على العيال والأهل بالنفقة، فيقول: أنفقت عليكم كذا وكذا بقصد المنة.

الخامس عشر: الحسد، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ما فيه من المفاسد، وأن غالب المعاصي منه.

السادس عشر: الإقدام على المعصية مع معرفتها، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

السابع عشر: جمع الدنيا من الحرام.

* **قلت**: ولا يتكرر مع الوجه التاسع كما لا يخفى.

---

(١) في (ب): تعظيم.

الثامن عشر: عقوق الوالدين، فسمعته ﷺ يحكي عن شيخه سيدي عمر بن محمد الهواري، وذكر أنه كان جالسًا معه عند السدرة المحررة التي هي خارج روضة سيدي علي بن حرزهم، فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج، فأبى عليه أبوه سيدي عمر، قال: وكان عاقًا لأبيه، فذهب وأبوه غير راض عنه.

فقال لي سيدي عمر: ونتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور:

أحدها: إن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم.

ثانيها: إنه إذا جلس في موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين في شيء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه، ويصير ممقوتًا بينهم.

ثالثها: إن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة، ولا يرقون له أبدًا.

رابعها: إن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئًا فشيئًا، فمن أراد الله به الشقاوة ـ والعياذ بالله ـ لم يزل كذلك إلى أن يذهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية، فيموت كافرًا ـ نسأل الله السلامة ـ ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الإيمان، أعاذنا الله من ذلك.

قال: ونتيجة رضاهم أربعة أمور هي أضداد لهذه الأمور: تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة، ويحلو كلامه بين الناس، ويحن عليه أولياء الله تعالى، ولا يزال إيمانه يزيد شيئًا فشيئًا، والله الموفق.

فانظر يا أخي هذه المفاسد الأربعة التي في عقوق الوالدين، والمحاسن الأربعة التي في بر الوالدين.

التاسع عشر: مخالطة المحجوبين كذوي الرئاسات، فإن في ذات العبد المؤمن خيطًا من نور يخرج من ثقبة من ذاته، يتصل ذلك النور بعطية الحق ﷻ يزيد بمخالطة أوليائه تعالى، ويقل بعدمها، ويخاف عليه من الانقطاع أصلاً، وانسداد الثقبة بمخالطة الرئاسات، فإنهم برئاستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته، فتكون تحت أسرهم وفي حكم قبضتهم، فلا يزال يصغي إليهم بقلبه وقالبه، ويبقى على ذلك المدة الطويلة، ولا يقع الحق ﷻ في فكره ولا في خاطره، فلا يزال كذلك مسترسلاً في أغراضه وانقطاعه حتى تنسد

الثقبة أصلاً ـ والعياذ بالله ـ وهذه آفة حاصلة من ذوي الرئاسات، نسأل الله السلامة.

العشرون: التفريق بين الخلفاء الأربعة ﷺ: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ أجمعين.

قال ﷺ: ومعنى التفريق أن يحب بعضهم ويبغض بعضهم، كما هو شأن الخوارج والروافض، وإنما كان ذلك التفريق سببًا في الانقطاع عن الله ﷻ لأن كل واحد منهم ورث خصلة من خصاله ﷺ فبغض ذلك الخليفة يسري إلى بغض النبي ﷺ فلذلك كان سببًا في الانقطاع.

فقلت له: فما الخصلة التي في أبي بكر ﷺ؟

فقال: خصلة الإيمان بالله ﷻ فإن الإيمان بالله تعالى كان في النبي ﷺ على كيفية خاصة، لو طرحت على أهل الأرض صحابة وغيرهم لذابوا، وورث أبو بكر ﷺ من تلك الكيفية شيئًا قليلاً على قدر ما تطيقه ذاته، ومع ذلك لم يكن في أمة النبي ﷺ من يطيق أبا بكر في ذلك، ولا من يدانيه لا من الصحابة ولا من غيرهم من أهل الفتح الكبير؛ لأن النبي ﷺ بلغ في أسرار الألوهية وحقائق الربوبية ورقائق العرفان مبلغًا لا يكيف ولا يطاق، وكان يتكلم مع أبي بكر في البحور التي كان يخوضها ﷺ فارتقى أبو بكر المرتقى المذكور، ومع ذلك فكان النبي ﷺ في الثلاث سنين الأخيرة لا يتكلم معه في تلك الحقائق خيفة عليه أن يذوب ﷺ.

قال ﷺ: **وأمّا الخصلة التي في عمر** ﷺ:

فهي خصلة النصيحة للمؤمنين، والنظر إليهم، وإيثارهم على نفسه، وتدبير أمر جيوشهم، وما يصلح عامتهم وخاصتهم، وهذه خصلة من خصاله ﷺ وقد ورث عمر ﷺ منها القدر الذي تطيقه ذاته.

وأمّا الخصلة التي في عثمان ﷺ:

فهي خصلة الرأفة والحنانة وصلة الرحم، وهذه واحدة من خصاله ﷺ وقد ورث منها عثمان ما يطيقه.

وأمّا الخصلة التي في عليّ ﷺ:

فهي خصلة الشجاعة، وهي إحدى خصاله ﷺ وقد ورث عليّ ﷺ ما يطيقه.

قال ﷺ: وكذا سائر الصحابة ﷺ كل واحد منهم ورث شيئًا من النبي ﷺ فبغض صحابي أيّ صحابي كان يوجب الانقطاع عن الله ﷻ.

ثم تفرقنا فلم نسمع منه تمام العدد السابق حتى مات ﷺ والله يفتح علينا فيه ببركته ﷺ. **وسمعته ﷺ يعد الأمور التي تزيد في الإيمان:**

فقال ﷺ:

منها: زيارة القبور.

ومنها: الصدقة لله تعالى خالصة.

ومنها: التحرز عن الإيمان الحانثة.

ومنها: غض البصر عن العورات والنظر إليها.

ومنها: التغافل على معاصي الناس؛ لأن من ينظر في معاصي الناس ويتتبعها قد يبتليه الله تعالى بالوسواس بأن ينعم الله تعالى على العاصي، ويديم عليه النعمة، ويجزل له العطية، فيقول الناظر إلى معصيته: كأن هذا إنما أدرك هذه النعمة بمعصيته، فيوسوس له الشيطان في المعصية حتى يقع فيها، أو يوسوس له على وجه آخر ويقول: انظر كيف أنعم عليه ربه وهو يعصيه، وحرمك أنت وأنت تطيعه، ما هذا مقتضى الحكمة، إلى غير ذلك من الوساوس الباطلة، أعاذنا الله منها.

ومنها: تعظيم العلماء الذين هم حملة الشريعة ﷺ فتعظيمهم يزيد في الإيمان، جعلنا الله من الذين يعرفون قدرهم.

قال ﷺ: ولو علم العامة قدر العلماء عند الله ﷻ ما تركوهم يمشون على الأرض، ولتناوب أهل كل حومة العالم الذي فيهم، وحملوه على أعناقهم، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إنما حرم الله اللواط؛ لأنه يسقط مع نطفة الرجل عدد من الملائكة، فإذا وقعت النطفة في الدبر الذي هو ليس محلاً للحراثة ماتوا جميعًا.

ومرة قال: إنهم بمنزلة فرخ الحمام إذا سقط على صخرة من عش عالٍ، أترى يبقى فيه شيء؟

قال: وأمّا إذا وقعت النطفة في الفرج الذي هو محل الحراثة، فإنه يبقى مع تلك النطفة العددان من الملائكة: عدد ملائكة نطفة الأب، وعدد ملائكة نطفة الأم، ومجموع ذلك ثلاثمائة وستة وستون ملكًا أنصافًا بينهما، إلا أن الرجل يزيد بعشرة؛ لأن ملائكته أكثر لسر في أصالة آدم لحواء.

قال: فإذا قضى الله تعالى بالتكوين فإن النطفة تصير علقة، ثم مضغة، ثم ما بقي من الأطوار، وكذا عدد الملائكة ينمو كل واحد منهم كما تنمو النطفة، فإذا خرج الولد إلى الدنيا خرج معه أولئك الملائكة، وهم حفظة ذاته، وكبيرهم الحافظ الذي على اليمين، فكما أن الولد نشأ بين الأب والأم، كذلك أولئك الملائكة نشأوا بين ملائكة ذات الأب وهم ثلاثمائة وستة وستون، وبين ملائكة ذات الأم.

قال: وأمّا إذا قضى الله تعالى ألّا يكون ولد من تلك النطفة فإن عدد الملائكة ينزلون معها إلى الرحم ويموتون، ولا ضرر على العبد في ذلك؛ لأنه لا كسب له في ذلك.

قال: وما شبهتهم حينئذ إلا بقطرات الزيت النازلة من فتيلة القنديل إذا كان مملوءًا بالزيت أكثر من القدر المعتاد، فتنزل مضيئة ولا تبلغ إلى الأرض حتى تنطفئ.

قال ﷺ: ولهذا لا يجوز التسبب في إخراج المني من الرحم؛ لأنا لا ندري هل أراد الله أن يكون من النطفة ولد أم لا؟ فنسعى في إهلاك عدد كثير من الملائكة.

وأمّا المفسدة التي حرم الزنا لأجلها فليست هي من جهة الملائكة، وإنما هي من جهة قطع النسب، وذلك أن الناس يوم القيامة لهم نفع عظيم بالأنساب، ولا تقبل هناك دعوى نسب إلا بشهادة، ولذلك أمر النبي ﷺ بالإشهاد في النكاح وإعلانه والجهر به، والزاني لا يفعل ذلك إلا خيفة؛ لأنه لو جهر به لأقيم عليه الحد، فهو ساع في قطع النسب واختلاطه، فهذا ما سبقت إليه الإشارة في مفسدة اللواط، عصمنا الله منه.

وسمعته ﷺ **يقول:** أتدري من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟

فقلت له: قل يا سيدي.

فقال: هو رجل أعطاه الله ذاتًا كاملة، وعقلاً كاملاً، وصحة كاملة، ومهَّد له في العيش وأسباب الرزق، ثم يبقى هذا الرجل اليوم واليومين والأكثر ولا يخطر بباله ربه ﷻ وإذا أمكنته المعصية أقبل عليها بذاته الكاملة وعقله الكامل، واستلذ بها واستحسنها من غير فكر يشوش عليه من ناحية ربه تعالى، فتجده متصلاً بالمعصية غاية الاتصال، منقطعًا عن ربه تعالى كل الانقطاع، يميل بكليته للمعصية ويستحليها غاية الاستحلاء، فيكون جزاء هذا يوم القيامة أن ينقطع إلى العذاب بجميع شراشره، ويتشوف إليه بالكلية، ويقع فيه المرة الواحدة، ويستحليه استحلاء المجروب للحك، وعلى قدر ما حك يكون وباله.

قال ﷺ: ولا سيما في حال المعصية شأنها عظيم وأمرها جسيم، فينبغي للمؤمن إذا عصى أن يعلم أن له ربًا قادرًا عليه، فيحصل الخوف والوجل منه تعالى، فتنكسر بذلك سورة العذاب إن لم يقع السماح بالكلية، والله الموفق.

فهذا ما سبقت الإشارة إليه سابقًا في شأن الإقدام على المعصية مع معرفتها.

وسمعته ﷺ يحكي في استحضار الخالق ﷻ حال المعصية حكاية عجيبة عن سيدي عمر بن محمد الهواري:

قال سيدي عمر: جاء رجل مسرف على نفسه، مرتكب للمعاصي إلى شيخي وأنا حاضر، فقال له: يا سيدي، أنا مرتكب للمعاصي، مصرّ عليها، لا أقدر على تركها، فكيف الحيلة في الخلاص؟

فقال له الشيخ: ويحك، أتعصي ربك؟ اترك المعاصي ولا تعد إليها، فقال: لا أقدر.

فقال الشيخ: ويحك، تب إلى ربك، فقال: لا أقدر، فتغافل عنه الشيخ وأقام عنده يومًا أو يومين، فلما أراد وداعه قال: يا سيدي، كيف الخلاص؟

فقال له الشيخ: إذا أردت أن تعصي ربك فاستحضر ثلاثة أمور وافعل ما شئت:

ـ استحضر المعصية، وقبحها، وما توصل إليه من غضب الرب.

ـ واستحضر ذاتك ونفسك، وخساستك وإعراضك عن ربك.

ـ واستحضر ربك وسطوته وقهره، وقدرته عليك متى أرادك، ثم عفوه عنك وما

أسبله عليك من جميل ستره.

فإذا استحضرت هذه الأمور كما ينبغي فافعل ما بدا لك.

قال: فذهب الرجل ثم بعد مدة لقيته فسلم عليّ وقال: أوَمَا تعرفني؟

فقلت له: من أنت؟

فقال: أنا صاحب المعاصي، قد أخذ الله بيدي ببركة كلام الشيخ؛ وذلك أني أردت المعصية فاستحضرت الأمور التي أوصاني بها فما قدرت عليها، فكان ذلك سبب توبتي، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: عندي أن الكبيرة ما فعلت حالة انقطاع القلب عن الله تعالى وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر باطنًا، وإن تعلق العبد بذلك ظاهرًا فإنه لا ينفعه، وإنما كانت المعصية في هذه الحالة كبيرة؛ لأنه في حالة الانقطاع يكون العبد واقعًا في المعصية بقلبه وقالبه، وبحبه ولبه، وبيديه ورجليه، وبكل ذاته، فلا يزجره من قلبه زاجر، ولا يذكره من ربه ذاكر.

والصغيرة ما فعلت حال تعلق القلب بالرب ﷻ وبالأمور الموصلة إليه من رسله وملائكته وكتبه، فإن العبد إذا وقع في المعصية حينئذ يقع فيها على غير نية مع شائبة بغض فيها لأجل المزاجر التي في قلبه، فهو في حالة مواقعتها في حياء من ربه تعالى.

* **قلت**: يشكل على هذا التفريق عدّه ﷺ الكبائر في الحديث مع إطلاقها، ولم يقيدها بحالة الانقطاع عن الله ﷻ.

فقال ﷺ في حديث الصحيحين: «**الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِالله وَالسِّحْرُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ**» زاد البخاري: «**وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ**» وزاد مسلم بدلها: «**وَقَوْلُ الزُّورِ**»[1].

وفي حديثهما أيضًا: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ**

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٥١٩، رقم ٦٤٧٧)، ومسلم (١/ ٩١، رقم ٨٨) والبيهقى (١٠/ ١٢١، رقم ٢٠١٦٩)..

الْـمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ»[1].

فقال ﷺ: هذه المعاصي لا تصدر من العبد إلا إذا كان مقطوعًا عن ربه ﷻ فإن كان القلب متعلقًا بالرب ﷻ لا يشرك ولا يتعاطى سحرًا، ولا شيئًا مما هو مذكور في هذين الحديثين.

ثم قال ﷺ: ألا ترى إلى فلان فإنه سيكون من أولياء الله تعالى وهو الآن محجوب من جملة المحجوبين، وقلبه متعلق بربه تعالى، فما باله لا يستطيع أن يفعل شيئًا من هذه المعاصي، ويخاف منها خوفه من النار، وإلى فلان فإنه ليس من المفتوح عليهم، وقلبه منقطع عن الله ﷻ ومجرد ذكر اللسان لا ينفع، وانظر إلى ما يرتكبه من القبائح، نسأل الله السلامة بمنه وكرمه.

قال: فمعاصي أهل القطيعة لا تخفى، ومعاصي أهل الوصلة لا تخفى.

وسمعته ﷺ **يقول**: إنما أسباب المعاش من حراثة وتجارة وغيرهما بمنزلة الكشاكيل التي في أيدي [السعاة][2]، فإنه قد جرت عادة الرب ﷻ أنه لا ينزل الرزق على العبد إنزالاً بأن يعطيه الرزق في يده من غير حيلة، بل لا يعطيه إياه حتى يسأله بكشكول من كشاكيل أسبابه، فإذا مد له الكشكول وضع له فيه ما يليق به ويصلحه، وحينئذ فيجب على المتسبب أن ينزل سببه بهذه المنزلة، فيكون نظره عند السبب إلى ربه ﷻ لا إلى السبب، كما أن الساعي المتكفف إنما ينظر إلى الناس الذين يعطونه ولا ينظر إلى كشكوله الذي في يده.

وإذا كان نظره عند السبب إلى ربه ﷻ كان متعلقًا حالة سببه بربه ﷻ فيكون سببه وصلة بينه وبين ربه تعالى، فلا يعتمد على سببه بل على ربه، وإذا كان اعتماده على ربه فلا يتعاطى إلا سببًا أذن له ربه فيه، وحينئذ فلا فرق عنده بين أن يكثر من الأسباب أو يقلل، فإن المعطي ﷻ واحد، وهو قادر على أن يعطيه في سبب واحد ما يعطيه لغيره في أسباب عديدة، فليتق الله وليجمل في الطلب، فهذه صفة أسباب المتعلقين بالله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ١٠١٧ ، رقم ٢٦١٥)، ومسلم (١/ ٩٢ ، رقم ٨٩)، وأبو داود (٣/ ١١٥، رقم٢٨٧٤)، والنسائى (٦/ ٢٥٧، رقم ٣٦٧١)، وابن حبان (١٢/ ٣٧١، رقم ٥٥٦١)، والبيهقى (٦/ ٢٨٤ رقم ٢٤٤٧).

(٢) في (ب): الشحاذين.

وأمّا غيرهم: فيقتلون أنفسهم حالة السبب بالخدمة، ولا يرون سببًا من الأسباب إلا تعاطوه سواء كان مأذونًا فيه أو غير مأذون فيه، ويعتقدون أن الرزق يكون على حسب حيلهم وسياستهم الفاسدة، فهؤلاء هم الذين يستحلون التدبير في أمور الدنيا والتعب فيها، وركوب المشاق العظيمة في طلبها على طاعة الله ﷻ وعبادته لكمال انقطاعهم عنه ﷻ.

وسمعته ﷺ مرة أخرى يقول في هذا المعنى: إنما مثل الناس كمثل قوم ربطت في أوساطهم حبال، ثم دلوا من شواهق جبال عالية، حتى كانوا بين الأرض والسماء، فتركوا معلقين في الهواء وطال ذلك من أمرهم.

فأما العقلاء منهم: فإنه لا يقر لهم قرار، ولا تسكن [أنفسهم][1] إلى غير من الأغيار، بل نظرهم مقسوم، فمرة ينظرون إلى الموضع التي تسقط فيه أرجلهم، وهل هو قريب أو بعيد؟ وهل المكان رخو أو صلب؟ وكيف تكون حالتهم إذا سقطوا على ذلك المكان؟ وهذه أنظار تذيب الأكباد وتفتت الفؤاد، ومرة ينظرون إلى الذي في يده الحبل المعلقون فيه، هل أراد أن يطلقه من يده أم الوقت باق؟ وهل بينهم وبينه مودة ورحمة فيحنّ عليهم إذا أطلقهم، وينزلهم إلى المكان الذي يسقطون إليه برفق، أو لا مودة ولا رحمة بينه وبينهم، فلا يبالي كيف رماهم، وحينئذ فيسعون في طلب مرضاته، ولا يمكنهم ذلك بحيلة من الحيل؛ إذ لا يمكنهم عمل من الأعمال، اللهم إلا أن يكون بخشوع القلب وخضوع اللسان، ونظر العين إليهم نظر الخائف منه المستعطف له، ثم هو مختار إن شاء رحم وإن شاء عذب، فتحترق قلوبهم من خوفه وعذابه.

وأمّا غير العقلاء من أولئك المعلقين: فإنهم لا ينظرون إلى المكان الذي يسقطون إليه، ولا ينظرون إلى الذي بيده الحبل، بل يغلب [عليهم] النسيان، ويظنون أن الموضع الذي هم فيه حينئذ موضع إقامة، فيشتغلون بأسباب الإقامة، فيبنون فيه الدور والقصور، ويتعاطون الحراثة والتجارة، وهم في ذلك الهواء ولا شعور لهم بأمر الحبل، فإذا قطع بهم وجدوا أنفسهم قد فرطوا في المكان الذي يسقطون إليه حيث لم يشتغلوا بالنظر إليه، ولا تعاطوا أسباب صلاحه ولو بالدعاء والتضرع، ولا تأهبوا للوقوع فيه، وفي الذي في يده

---

(١) في (ب): قلوبهم.

الحبل، فإنهم ما عرفوه فضلاً عن أن يتضرعوا له، ويطلبوا منه النجاة والسلامة.

قال ﷺ: فهذه حالة الغافل عن الله وعن الآخرة والذاكر لهما، فالحبل هو العمر، وانقطاعه بالموت، والمكان الذي يسقط فيه إمّا جنة وإمّا نار، والذي في يده الحبل هو الله ﷻ فالعارفون به في خوف دائم من هذين الأمرين، فأثابهم الحق ﷻ بالراحة يوم اللقاء، وأمّا الغافلون فعلى العكس من ذلك، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إنما أرسل الله للعباد رسله وأمرهم بالطاعة لخصلة واحدة، وهي أن يعرفوه فيوحدوه، ولا يشركوا به شيئًا، فمتى حصل هذا المقصود من العبد كان عند الله محبوبًا عزيزًا.

وسيأتي في كلامه ﷺ أن الطاعة إنما هي فتح باب يدخل منه نور الحق على الذوات، وأن النهي عن المعاصي إنما هو عبارة عن سد أبواب يدخل منها ظلام الباطل على ذات العاصي، فمن كان مرتكبًا للطاعات مجتنبًا للمخالفات فقد فتح على ذاته أبواب نور الحق، وسد عنه أبواب ظلام الباطل، ومن ترك الطاعات وارتكب المخالفات فقد فتح على نفسه أبواب ظلام الباطل وسد عنها أبواب نور الحق، ومن أطاع وعصى وفعلهما معًا فقد فتح على نفسه البابين معًا.

فلينظر العبد في أيّ مقام هو، وأيّ باب فتحه على نفسه، قبل أن يندم حيث لا ينفعه الندم، ولكن أكثر الناس يظنون أن القيام بالطاعات ظاهرًا يكفي في فتح أبواب الحق، كما أن فعل المخالفات ظاهرًا يكفي في فتح أبواب الشر، وليس كذلك، بل لابد في ذلك أن يوافق الظاهر الباطن.

فالناس حينئذ على أربعة أقسام:

قسم: ظاهره وباطنه مع الله، فظاهره مع الله بامتثال أوامره، وباطنه مع الله بزوال الغفلة حال فعل الطاعة وحصول المراقبة والمشاهدة، فهذا هو المحبوب عند الله ﷻ.

وقسم: والعياذ بالله ظاهره وباطنه مع غير الله ﷻ فظاهره في المخالفات، وباطنه مغمور بالغفلات، فهذا هو المذموم.

وقسم: ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله، فظاهره في الطاعات، وباطنه غافل، وعلة

هذا حيث لم ترده عبادته إلى ربه أنها ـ أي: عبادته ـ صارت عادة له من جملة العادات، فاستأنست ذاته بها، فصار يفعلها بحكم وازع الطبع لا بحكم وازع الشرع.

وقد ينضاف إلى هذه العلة علة أخرى، وهي أن يكون عند الناس معروفًا بالعبادة والزهد وحسن السيرة، فيخاف من تقصيره في عبادته أن يسقط من أعين الناس، فتراه يعبد ليله ونهاره حرصًا على أن تزيد درجته عند الناس، فهذا هو الذي لم تزده عبادته إلا بعدًا من الله ﷻ.

وقد يجمع الله ﷻ بعض أهل هذا القسم مع واحد من أكابر أوليائه من أهل القسم الأول، فيرى الولي علته فيريد أن يعالجه، فيأمره بترك بعض ما هو عليه من ظاهر العبادة، فيأبى عليه ذلك لاستحكام العلة، فيهلك مع الهالكين.

* **قلت**: كما وقع لصاحب أبي يزيد البسطامي ﷺ وذلك أنه أمر بعض من كان معه ـ والله تعالى أعلم ـ على هذه الحالة بترك صيام نفل، فأبى عليه، فقال له أصحابه وإخوانه في الله: ويلك، أتعصي قدوتك؟ فقال لهم أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله ﷻ.

وقسم: ظاهره مع غير الله وباطنه مع الله ﷻ فظاهره في المخالفات، وباطنه في مراقبة الحق ﷻ فتراه يعصي وربه بين عينيه لا يغيب عن فكره، فتكبر عليه معصيته ويراها واقعة عليه كالجبل، فهو حزين كئيب دائمًا، وهذا أفضل عند الله بدرجات من القسم الذي فوقه؛ لأن مقصود الله من عباده هو الانكسار والوقوف بين يديه تعالى بالذلة والخضوع، حصل لهذا دون الذي فوقه.

* **قلت**: وقد سبق له ﷺ المثال الذي ضربه لعباده المنافقين الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، فراجعه في شرح حديث الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[1]، لتعلم به خساسة أهل القسم الثالث، والله الموفق بمنه وفضله.

وسمعته ﷺ **يقول** وقد سئل عن اضطراب الذات في بعض الأحيان وصياحها، وذكر السائل أنه إذا اشتغل بالذكر والعبادة يحصل له ذلك، وخاف أن يكون من الشيطان ـ لعنه الله ـ وذكر أنه إذا أقبل على الدنيا واشتغل بها انقطع عنه ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال ﷺ: إن الروح قد تفيض بالنور الذي فيها على الذات، فيحصل للذات ذلك الاضطراب، فتارة تمدها به في حالة الطاعة، وتارة تمدها به في حالة المعصية، فبينما الشخص في معصية ربه عاكف على شهوته إذ نفضت الروح على الذات بذلك النور، فيحصل للذات خشوع ورجوع إلى الله تعالى.

قال: فلا ينبغي للشخص إذا حصل له ذلك في حالة الطاعة أن ينسبه إلى طاعته وعبادته، فيدخله العجب فيقول: لو كان ذلك من الطاعة لما حصل في حالة غيرها.

قال: وهذا النورالحاصل للذات من الروح هو للذات بمنزلة الزمام، فإذا رآها عدلت عن الطريق وخاف عليها من الزيغ ظهر عليها ـ أي: على الذات ـ ليقودها إلى الطريق، ولا يكون إلا فيمن أراد الله به خيرًا؛ إذ هو سبب من أسباب الهداية، وقد يكون في ذات أخرى لم يرد الله بها خيرًا ظلامًا يصدها عن الطريق، ويمنعها من إجابة الرسول ﷺ.

قال: فلكل ذات ضوء لا تمشي إلا في ضوئها، فإذا كان ضوؤها يهديها إلى الطريق فهي موفقة، وإن كان ضوؤها يزيغ بها وهو الذي نسميه ظلامًا، فهي مخذولة.

ثم قال ﷺ: وفي الروح ثلاثمائة وستة وستون سرًا، فمن تلك الأسرار سر لو أمدت الروح به الذات لبكت دائمًا، ومنها سر لو أمدتها به لضحكت دائمًا، ومنها سر لو أمدتها به لصاحت دائمًا، ولكنها لا تمدها إلا بما سبق به القدر.

وكنت معه ﷺ ذات يوم بموضع فجلس معنا رجل، وبينما الشيخ ﷺ يتكلم إذ جعل الرجل يصيح صياحًا منكرًا، وطال ذلك من أمره، فقال لي الشيخ ﷺ بعد ذلك: هو شيء كبير، لولا أن الشياطين تلعب به ويفسدون عليه صلاته.

فقلت: يا سيدي، وكيف؟

فقال ﷺ: إن وجهة القلوب إلى الله تعالى هو صلاتها، كما أن ركوع الذات وسجودها هو صلاتها، وإنما شرعت الصلاة وسائر الطاعات لتحصل هذه الوجهة، فهي نتيجة العبادات وفائدتها التي هي سبب ربح العبد ورحمته، فإذا رأت الشياطين شخصًا

أراد أن تحصل له هذه الوجهة من ذكر أو سماع كلام رقيق أو نحو ذلك، [نفذوا][1] على قلبه، فأفسدوا عليه وجهته حسدًا لبني آدم وبغضًا فيهم، فتحصل لهذا الصائح مفاسد:

منها: فساد الوجهة التي هي سبب ربحه.

ومنها: أن يظن أنه على شيء.

ومنها: ما يخشى عليه من الانقطاع؛ لأنه بذلك الصياح يظن أنه على شيء، وكذلك الناس يظنون أنه على شيء، فيشيرون إليه، وويل لمن أشارت إليه الأصابع.

* قلت: ومما يؤيد هذا الحكاية التي ذكرها الشيخ زروق ﷺ وملخصها: إن قومًا من الفقراء كانت عندهم بفاس [مبيتة][2]، فكلموا شخصًا صادقًا في الذهاب معهم وكان أعمى، فذهب معهم إلى الموضع، فبينما هم يذكرون إذ قال الشيخ الأعمى ﷺ: يا قوم، قد دخل عليكم الشيطان في صورة عنز بقرونها.

ثم قال: فمن هو صاحب الغفارة الحمراء منكم؟ فإني رأيت الشيطان يشمه شمًا عنيفًا، ثم صاح الأعمى وقال: إنه نطحه بقرونه حتى غاصت فيه، فلم يفرغ من كلامه حتى صاح صاحب الغفارة وخرج عن حسه، ثم قال الأعمى: ومن هو صاحب اللباس الفلاني فيكم؟ فإني رأيت الشيطان قد انتقل إليه يشمه، ثم صاح: لقد نطحه [عدو الله][3] والله بقرنه نطحة منكرة، فصاح المشموم وغاب عن حسه، انظر تمام الحكاية، فافتضحوا بحضور ذلك الصادق معهم، وكانوا قبله يحسبون أنهم على شيء، فكانوا على جهل مركب.

وقد اتفق أنه صاح بعض الناس بحضرة شيخ عارف، فقال له الشيخ: إني تبعت صيحتك حتى دخلت إلى قبر بمقبرة كذا، فقال الصائح ولم يكن من أصحاب ذلك الشيخ: صدقت يا سيدي، لما مررت بكم فوجدتكم تذكرون محبوبكم ذكرت أنا محبوبتي، وكانت ابنة عم لي ماتت وذلك هو قبرها، فلما تذكرتها صحت من ألم فراقها، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (ب): وثبوا.
(٢) في (ب): ليلة ذكر.
(٣) سقطت من (أ).

وسمعته ﷺ **يقول**: الدخان المعروف بطابة حرام؛ لأنه يضر بالبدن، ولأن لأهله ولاعة به تشغلهم عن عبادة الله وتقطعهم عنه، ولأنا إذا شككنا في شيء أحرام هو أم حلال ولم نجد فيه نصًّا عن النبي ﷺ نظرنا إلى أهل الديوان من أولياء الله تعالى وهم أهل الدائرة والعدد، فإن وجدناهم يتعاطون ذلك الشيء علمنا أنه حلال، وإن وجدناهم لا يتعاطونه ويتحامون عنه علمنا أنه حرام، وإن كان بعضهم يتعاطاه وبعضهم لا يتعاطاه نظرنا إلى الأكثر فإن الحق معه، وأهل الديوان لا يتعاطون هذا الدخان، ولأن الملائكة تتأذى بريحه.

ثم حكى لنا حكاية عن مدينة متعفنة؛ لاجتماع فضلات بني آدم فيها، وزبل الدواب مع قلة المياه لذلك، وأطال في وصف المدينة وكيفية شكلها وأين هي، والغرض حاصل بهذا الذي قلناه، فلذا لم نكتب كيفية وصفه لها.

قال: فتجتمع فيها روائح كريهة فوق ما يظن.

قال: فدخلها ذات يوم ثمانية من أولياء الله تعالى من أهل التصرف، فلما توسطوها خرجوا منها مسرعين، وسبب إسراعهم أن ملائكة ذواتهم نفرت من تلك الروائح الكريهة، فنفر الأولياء لذلك؛ لأنه لا يعلم خطر نفور الملائكة عن الذات إلا من له بصيرة، وما مثاله إلا كمن جيء به إلى موضع العدو وبلاد اللصوص، ثم عزل عن سلاحه، فبأيّ شيء يلقى العدو حينئذ؟

فقلت: فالثوم والبصل ونحوهما لها رائحة كريهة وأكلها ليس بحرام.

فقال ﷺ: إذا اجتمع حق الآدمي وحق المَلَك قُدِّمَ الآدمي؛ لأن كل شيء إنما خلق من أجل بني آدم، فما فيه منفعة لبني آدم لا يحرم، وإن كان فيه مضرة للمَلَك، وفي الثوم والبصل منافع لا تخفى، بخلاف الدخان فإنه لا منفعة فيه [لبني آدم]، نعم يحدث بسبب شربه ضرر في الذات، ويصير الدخان بعد ذلك قامعًا له [بعد ذلك]، فهو بمنزلة من قطع ورقع، ولو لم يشربه صاحبه لم يحصل فيه قطع حتى يحتاج إلى ترقيع، فيظن أربابه أن فيه نفعًا وليس فيه إلا هذا.

* **قلت**: وكذا سمعت بعض من ابتلي به يقول: إنه سمعه من طبيب ماهر نصراني.

وما ذكره ﷺ في خطر نفور الملائكة عن الذات به أجابني مرة أخرى حين سألته لما اختلف علينا كلام الشيخ الحطاب، وكلام الشيخ المواق ـ رحمهما الله تعالى ـ في دخول الحمام مع مكشوفين لا يستترون.

فقال الشيخ الحطاب: يحرم الدخول، ويجب عليه التيمم إن خاف من الماء البارد.

وقال الشيخ المواق: يدخل ويستتر ويغض عينيه ولا حرج عليه.

فقال ﷺ: الصواب مع الشيخ الحطاب، وأمّا ما ذكره الشيخ المواق ففيه آفة بعد فرض المستتر متحرزًا إلى الغاية، وفارًا من النظر في عورة غيره إلى النهاية، وهي ـ أي: الآفة ـ أن المعاصي ومخالفة أوامر الله تعالى لا تكون إلا مع الظلام الذي بينه وبين ظلام جهنم خيوط واتصالات يحصل له [الشقاء][1] من جهنم بسببها، ولا أحد أعرف بذلك من ملائكة الله تعالى، فإذا اجتمع قوم تحت سقف الحمام مثلاً على معصية، وظهرت المعصية من جميعهم عمَّ الظلام ذلك الموضع، فتنفر الملائكة عنهم، وإذا نفرت الملائكة جاء الشيطان وجنوده فعمروا الموضع، فتصير أنوار إيمانهم ـ أي: العصاة ـ حينئذ كالمصابيح التي جاءتها الرياح العاصفة من كل مكان، فترى نورها مرة يذهب إلى هذه الجهة، ومرة إلى هذه الجهة، ومرة ينعكس إلى أسفل حتى تقول: إنه انطفأ واضمحل، ولهذا كانت المعاصي بريد الكفر، والعياذ بالله تعالى.

فإذا كان الحمام وأهله على هذه الحالة التي وصفنا وفرضنا رجلاً خيرًا دينًا، فاضلاً متحرزًا جاء ودخله واستتر، فإنه يقع لنور إيمانه اضطراب بالظلام الذي وجده في الحمام؛ لأن ذلك الظلام ضد الإيمان، فتضطرب ملائكته لذلك أيضًا، فتطمع فيه الشياطين وتصل إليه وتُشهّي إليه النظر في العورة وتغويه، فلا يزال معهم في قتال وهم يقوون عليه، وهو ضعيف بين أيديهم حتى يستحسن الشهوة، ويستلذ النظر للعورة، نسأل الله السلامة.

قال: ولو فرضنا جماعة يشربون الخمر ويستلذون به، ويظهرون المعاصي التي تكون معه ويفحشون فيها، ولا يتحرزون من أحد ولا يخشونه، ثم فرضنا رجلاً جاءهم وفي يده «دلائل الخيرات» وجلس بينهم وجعل يقرؤها، وأطال معهم الجلوس وجلس معهم اليوم

---

(١) في (ب): السقي.

إلى آخره، وهو على قراءته، وهم على معاصيهم، فإنه لا يذهب عليه الليل والنهار حتى ينقلب إليهم، ويرجع من جملتهم للعلة التي ذكرناها، ولهذا نهي عن الاجتماع مع أهل الفسوق والعصيان؛ لأن الدم والشهوة والغفلة فينا وفيهم، إلا من رحمه الله، وقليل ما هم، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ يصف جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ فذكر فيها ما لا يطاق من الوصف، حتى قال بعض إخواننا الحاضرين: يا سيدي، لو علم الناس جهنم لشغلتهم عن الأكل والشرب فضلاً عن غيرهما.

فقال ﷺ: المؤمنون بالله وبرسوله كلهم عارفون بجهنم، فإن الواحد منهم إذا جرى على لسانه ذكر جهنم كان ذلك الذكر جاريًا على قلبه كما جرى على لسانه، وإذا سمعها تذكر وكان ذلك السماع جاريًا على قلبه كما جرى على أذنه، فقد استوى الظاهر والباطن في الإيمان بها، وحضرت في الباطن كحضورها في الظاهر، وإنما الشأن في استدامة ذلك الحضور، فمن استدامه فقد رحمه الله وزالت غفلته وقلَّت مخالفته، ومن لم يستدمه كان على العكس من ذلك.

فقلت له: وما السبب في عدم استدامة ذلك الحضور؟

فقال: الدم الذي في الذات، وبخاره هو السبب في ذلك، وذلك أن العبد إذا ذكر جهنم أو سمع بذكرها فإن ذلك كما سبق ينزل على قلبه، وحينئذ يذهب الدم وبخاره.

* قلت: ولذا يصفر وجه الخائف، وإذا هرب الدم تعطل حكمه الذي هو الغفلة، فإذا انقطع ذلك الذكر الذي هو سبب هروب الدم رجع الدم إلى مجاريه، واستولت الغفلة على الذات، فإذا رجع العبد إلى الذكر رجع الدم إلى القرار فزالت الغفلة، فإن سها العبد عن الذكر رجع الدم إلى مكانه واستولت الغفلة على العبد حتى يرجع العبد إلى الذكر، فتزول حتى يسهو عنه فترجع، وهكذا على الدوام إلا من رحمه الله.

ثم الناس مختلفون في مقدار الأمد الذي بين الرجوع إلى الذكر وبين السهو عنه:

فمنهم: من يرجع بعد ساعة.

ومنهم: من يرجع بعد ساعتين.

ومنهم: من يرجع بعد يوم.

ومنهم: من يرجع بعد يومين.

فانظر يا أخي من أيّ قسم تكون ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٩].

فقلت: ولم كانت الذات إذا سمعت الذكر تزول عنها الغفلة ويهرب منها الدم، وإذا لم تسمعه كانت بعكس ذلك.

فقال: لأنها بسماع الذكر تحصل لها اليقظة والإفاقة، فتكون بمنزلة من رجع إليه عقله، فتجري أفعاله على السداد، فإذا زال السماع عنها رجعت إلى منامها الذي هو الغفلة، ومثالها حينئذ كنائم وقع في النوم وقوع استطابة واستحلاء، فإذا كلم ونودي أجاب من كلمه على كره واستثقال، وبمجرد انقطاع النداء يرجع إلى منامه؛ لأنه هو الغالب عليه السابق على هذا النداء إلى ذاته، فكذلك الغفلة هي السابقة للذات الغالبة عليها، والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن الكشف والنظر فيه، وسبب العيب الحاصل منه.

فقال ﷺ: الكشف والحظ وغيرهما مما هو في معناهما سبب الجميع انقطاع القلب عن الله ﷻ وخراب الباطن من سلطانه تعالى؛ وذلك أن العبد إذا أحضر ربه في قلبه، وعلم أنه تعالى هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مدبر غيره، ولا شريك له في ملكه ـ جل وعلا ـ وأنه تعالى لطيف بعباده، يعطيهم أكثر مما يتمنون، ويرحمهم فوق ما يظنون، فعند ذلك يرضى العبد بربه وكيلاً، ويتخذه في جميع أموره دليلاً، وينحاش إليه بالكلية، وينقطع إليه بالطوية، ويضع مقاليده وجميع أزمته في يديه، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه، وعند ذلك يشاهد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من الخيرات التي يفعلها به سيده ومالكه، هذا شأن من قلبه معمور بالله ﷻ.

وأمّا من خلا قلبه من ربه ﷻ واستولت الغفلة عليه، وصار لا يشاهد إلا ذاته، ولا يرى الأفعال صادرة إلا عن نفسه، فهذا هو الذي يتعاطى ما سبق، ويريد أن يطلع على الغيب؛ ليستكثر من الخير في نظره المكسوف ورأيه المكشوف، وعند ذلك يكله ربه تعالى

إلى نفسه، ويجعل تدميره في تدبيره، ويبتليه بالرزايا والبلايا، وخيبة الرجاء، وفوات المقصود، كما هو مشاهد في أرباب هذا الفن ـ نسأل الله السلامة بمنه وفضله ـ وذلك قليل في حق من أعرض عن سيده، ولم يرض بما خرج له في القسمة.

قال: وقد وقع لبعض رهبان النصارى ما يستغرب، وذلك أنه كان كبيرهم ومقدمهم على الكنيسة، فكان إذا أراد الخروج من الكنيسة لا يعرض عن الصليب ويعطيه بالظهر حتى يخرج من الكنيسة، إلى أن كان في بعض الأحيان، فسافر ولده في وقت هيجان البحر وكثرة زلازله، فدخله من الخوف على ولده ما لا يكيف، فصار يترقب أخباره ويستشرف إليها، حتى جاءه الخبر بقدومه سالمًا، فغلبه الفرح حتى ترك العادة في خروجه من الكنيسة، فاستدبر الصليب وخرج، فلما سلم على ولده تذكر ما فعل مع الصليب، فرجع من فوره وقال للرهبان: اضربوني ألف سوط، فقالوا: لم؟

فقال: لأني استدبرت الصليب في هذا اليوم، فاستعظموا ذلك الاستدبار، فجعلوا يضربونه حتى أكملوا العدة، ولا غابت عليه محنة، فكان الناس عند ذلك يظنون أنه لأجل البلاء الذي حصل له من الضرب تتبدل نيته في الصليب ويرجع عن دينه، فلم يشعروا به حتى أخذ الشفرة وقطع رجليه من الكعبين وقال: هذا جزاء من يعرض عن سيده.

قال ﷺ: فإذا كان هذا يصدر من قوم على الضلال والباطل، فكيف ينبغي أن يكون حال من هو على الحق ويعبد الحق ﷻ؟!

قال: ولكنه تبارك وتعالى لما سبق منه في سابق علمه وإرادته أنه خلق أقوامًا وجعلهم أهل رحمته، وخلق آخرين وجعلهم أهل نقمته، جعل حركاتهم وسعيهم على وفق السابقة.

فأمّا أهل الرحمة: فعلق قلوبهم به وصرف همتهم إليه ﷻ فصارت حركاتهم وسكناتهم تابعة لذلك، فصلاتهم له، وصيامهم له، وقيامهم له، وقعودهم له، وسهرهم له، ومحبتهم له، ولم يزل تعالى يحركهم فيما يحبه إلى أن وصلوا إليه وظفروا برحمته، فحصلوا على ما سبق لهم من قسمة الرحمة.

وأمّا أهل نقمته: فعلق قلوبهم بغيره، وصرف همهم إلى ما هو أوهى من خيط العنكبوت كالأمور المتقدمة، فصارت حركاتهم وسكناتهم تابعة لذلك، فقيامهم لغيره

تعالى؛ لئلا يتعلقوا به ﷻ وقعودهم كذلك، وسهرهم كذلك، وجميع مسعاهم لغيره تعالى، حتى ينفذ الوعيد السابق ويظفروا بما سبق لهم من قسمة العذاب.

وحكى لنا عن بعض الصالحين أنه قال: جلست إلى جنب رجلين [طعنا][1] في السن، وبلغا نحو السبعين سنة من الصبح إلى الزوال، وهما يتحدثان في أمور الدنيا، ولم يجر على لسانهما ذكر الله تعالى ولا النبي ﷺ.

قال: ثم قمت فجددت الوضوء، ثم جلست إلى جنب صبيين صاما أو قربا من الصوم، فجعلا يتحدثان في وحدانية الله تعالى وما له من الصفات، فسمعت منهما ما لا يطاق، فتعجبت من حالهما ومن حال الشيخين الكبيرين ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

وحكى ﷺ لنا في تأييد أنه تعالى إذا علق قلب عبد بغيره تعالى، فإنه يملي له من حيث لا يحتسب، ويمده بما هو فتنة له حتى يظهر عليه إخبار بغيب أو نحوه، حكاية تمتلئ القلوب منها رعبًا، وهي: إن وليًّا سلبه الله وانقطع نور الحق من قلبه، فكان قبل السلب تظهر عليه كرامات الأولياء، وكان بعد السلب تظهر على يده من أمور الطب ما يتعجب منه فتنة له، وليظن بعد السلب أنه على شيء، فتسامع الناس به من كل مكان، ووفدوا عليه بالأموال الثقيلة، وكان جموعًا لها، فبقي على ذلك مدة قريبة من ثلاثة عشر عامًا، وجمع سبعين ألف دينار، ومات ولم يترك وارثًا، وورثه بيت المال، وكان عاقبة أمره خسرًا، نسأل الله السلامة والعافية، والله تعالى أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن شعور الولي بالجنابة إذا كانت على أحد ولم يغتسل منها.

فقال ﷺ: الجنابة عند الأولياء شتى، ويجب الغسل من أمر واحد، وأسبابه عند الأولياء متعددة، وعند العلماء له سبب واحد، فالأولياء يجب عندهم الغسل في جميع تلك الأسباب، وعند العلماء لا يجب الغسل إلا من سبب واحد.

ـ **فسألته** عن ذلك الأمر الذي له سبب واحد عند العلماء، وتعددت أسبابه عند الأولياء.

---

(١) في (ب): كبيري.

فقال: هو انقطاع الذات عن الله تعالى في نظرها، بأن تمد عيونها كلها عنه تعالى، وتمتلئ عروقها فرحًا بغيره تعالى وسرورًا، ويستوعب الفكر في ذلك الغير وسائر أجزائها وجواهرها بشرط أن يكون ذلك الغير قاطعًا عنه ـ تبارك وتعالى ـ في تلك الحالة، فإذا وقعت الذات في هذا الانقطاع الكلي نفرت الملائكة والحفظة منها، واستعظموا انقطاع العبد عن ربه تعالى، فعند الصوفية كل سبب قاطع أوجب للذات هذا الانقطاع يجب الغسل منه، وعند العلماء لا يجب الغسل إلا من الجماع أو ما في معناه.

قال: وسر الغسل هو تطهير الذات من ذلك الانقطاع بتنزيله ـ أي: الانقطاع ـ بمنزلة النجاسة الحسية، وإذا أخذ العبد في الاغتسال أخذت الملائكة في الرجوع، فسبب شعور الولي بالجنابة رؤيته للملائكة نافرة من الذات المنقطعة، فيعلم بأن النفور سببه هو الانقطاع الحاصل من الجنابة.

فقلت: فالمراقب لله تعالى حالة الوقاع يقتضي هذا الكلام أنه لا يجب عليه غسل.

فقال ﷺ: هذا بالنسبة لغيره نادر، والنادر لا حكم له، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: يقدر الولي على أن يكلم أحدًا في أذنه ولا يقوم عنه حتى يكون هو والولي في المعارف على حد سواء من غير فرق بينهما؛ يعني: إن الولي الكامل يقدر على توصيل العبد إلى رحمة الله تعالى في هذه اللحظة.

قال ﷺ: لكن الشأن كله في العلك الذي يلصق به هذا السر، فإنه إذا لم يكن في الذات علك رجع السر إلى أصله، مثل من يلبس للهواء قميصًا وسراويل وعمامة، فإنها لا تثبت فيه.

ـ فأردت أن أسأله عن ذلك، فلم يمكن في ذلك الوقت، فافترقنا عند قرب العشاء، فنمت فرأيته في المنام فسألته عنه.

فقال لي: هو موت النفس، فلما التقيت معه في اليقظة أخبرته بجواب المنام.

فقال ﷺ: الجواب حق.

فقلت: ما معنى موت النفس؟

فقال مرة: هو أن تكون أفعال العبد كلها خالصة لله، فإذا كانت الأعمال لغير الله فذلك علامة حياة النفس، وعلامة أخرى إذا كان العبد يجد من نفسه وسواسًا فهو آية على حياة النفس، وبقدر كثرة حياتها يكثر الوسواس، فمن لا وسواس له فلا نفس له، ومن له وسواس فله نفس حية، ومن له نفس حية لا تكون أعماله لله تعالى، بل لنفسه يسعى ولها يدبر.

فقلت: وما الترياق الذي إذا نزل عليها ماتت وذابت كما يذوب الملح في الماء؟ فاذكره لنا حتى نضعه عليها ونستريح منها.

فقال: لا شيء إلا إذا نزل عليها الجبل الكبير.

فقلت: وما الجبل الكبير؟

قال: معرفة الله تعالى ومشاهدته، فإذا كان قلب العبد معمورًا بها وعلم أنه من ربه تعالى بمرأى ومسمع، وأنه [لا] يتحرك في شيء إلا إذا كان هو المحرك له تعالى، وأنه هو المنعم عليه تعالى بما شاء من النعم، وأن مصيره في الدار الأخرى إلى ربه، فيدخله أيّ دار شاء، فإذا فكر في هذا علم قطعًا أنه لا يقدر على نفع لنفسه ولا لغيره في هذه الدار، ولا في الدار الآخرة إلا إذا أعطاه ربه، فعند ذلك لا يتشوف إلى غيره فتموت نفسه ـ وفقنا الله لأسباب موتها بمنه وكرمه ـ والله تعالى أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن اللعبة المعروفة بالضامة، وقد مررنا على قوم يلعبون بها، فسألته عن حكم اللعب بها.

فقال ﷺ: هو حرام.

فقلت: ولم؟

فقال: جميع المحرمات إنما حرمت لسبب واحد، وهو ما فيها من الانقطاع عن الله تعالى، فكل قاطع للعبد عن الله تعالى ولا غرض فيه للشارع فإن الله يحرمه.

قال: وهذه اللعبة لا منفعة فيها إلا الشغل عن الله تعالى، فإن أربابها تراهم حين تعاطيها منقطعين إليها بالقلب والقالب حتى تنسد جميع عيون ذواتهم عن الحق ﷻ في تلك الساعة.

فقلت: وكذا تعلم الرمي وجري الخيل وغير ذلك من آلات الحرب فيها انقطاع عن الله تعالى وقت الشغل بها.

فقال: ليست هذه بمنزلة اللعبة السابقة، فإنه لا غرض فيها للشارع، ولا تعود على العبد بمنفعة في ذاته، بخلاف الرمي وجري الخيل وغيرهما من آلات الحرب فإن تعلمها من إعداد القوة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠] فكل ما هو مقصود للشارع أو يصح أن يكون مقصودًا ليس بقاطع عن الله تعالى.

قال ﷺ: ولذا اختلفوا في الشطرنج:

فمنهم: من أباحه نظرًا إلى ما فيه من تعلم كيفية الحرب وغير ذلك مما فيه، ويصح أن يكون مقصودًا للشارع.

ومنهم: من منعه نظرًا إلى أن مقصود الشارع في تعلم كيفية الحرب وغيرها لا يتوقف على تلك الطريق بالخصوص، بل يحصل بطريق آخر أوضح منها وأسهل، فلهذا كان الشطرنج أخف من الضامة، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يحكي عن بعض الصالحين**: إن سبب رسوخ التوبة في ذات العبد، ومدّ أغصانها فيها، وتمكن عروقها منها، وبلوغها الغاية فيها، هو محبة المؤمنين جميعًا من غير فرق، كما يبغض الكافرين جميعًا من غير فرق.

قال: فإذا كانت هذه المحبة في العبد نزلت عليه التوبة من الله، ولو كرهها وأراد دفعها فإنها تنزل لا محالة، وسبب ذلك أن العبد لا يفرق في محبته للمؤمنين حتى يحب بعضًا دون بعض، إلا لدسيسة بغض في قلبه نشأت عن حسد أو كبر أو نحو ذلك، فتكون طويته خبيثة، والتوبة النصوح لا تنزل إلا بأرض طيبة وطوية طاهرة، فإذا أحب جميع المؤمنين فقد ارتفعت الدسائس كلها عن قلبه، فتنزل التوبة عليه حينئذ.

ومرة قال: مثل هذا لا يحتاج إلى توبة، وهذه المحبة العامة تكفيه في محو جميع الذنوب، فإنها تذهب من القلب جميع الدسائس الموجبة للذنوب.

قال: ومن أعظم تلك الدسائس الحسد، وهو لا يبقى قطعًا مع هذه المحبة، وإنما

قلنا: إن الحسد هو أعظم الدسائس؛ لأن جميع المعاصي والدسائس إنما تتفرع عنه، وهو السبب في جميعها، فإنك لا تبغض أحدًا لكونه أكثر منك مالاً وولدًا ونحو ذلك إلا لحسد منك له، وكذا لا تتكبر عليه إذا كنت أكثر منه مالاً وولدًا وأعز نفرًا إلا لكونك تريد أن تطرده عن بلوغ منزلتك بذلك الكبر الذي تتكبر به عليه، وما ذاك إلا لكونك لا تحب تلك المنزلة له، وذلك هو الحسد بنفسه، وهكذا القول في رد جميع المعاصي إلى الحسد.

* **قلت**: وقد سبق شؤم الحسد، وأنه أحد أبواب الظلام، وأحلنا هناك على هذا الكلام، فالله تعالى يقينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر.

ثم قلت للشيخ ﷺ: فإذا أحب هذا الرجل جميع المؤمنين من غير فرق، فأين الحب في الله والبغض في الله اللذان هما شعبة من شعب الإيمان؟ فإن العاصي يستحق [له] أن يبغض في الله، فإذا أحببناه في الله خالفنا مقتضى عصيانه.

فقال ﷺ: الذي يجب أن يتوجه البغض إليه في العاصي هو أفعاله لا ذاته المؤمنة وقلبه الطاهر وإيمانه الدائم.

[قال]: فالأمور التي توجب محبته لازمة، والذنوب التي توجب بغضه عارضة طارئة، فتكون محبته هي الساكنة في قلوبنا، وبغضه يتوجه نحو الأمور العارضة، حتى إنا نمثل ذنوبه بين أعيننا وفي أفكارنا بمنزلة أحجار مربوطة بثيابه خارجة عن ذاته، فنحب ذاته ونبغض الأحجار المربوطة بثيابه.

وهذا القدر هو الذي أمر به الشارع في بغض العاصي من غير زيادة عليه، وأكثر الناس لا يفرقون بين بغض الأفعال الخارجة عن الذات وبين بغض الذات، فيريدون أن يبغضوا الأفعال فلا يعلمون كيف يبغضونها، فيقعون في بغض الذات، وبغض الذات إنما أمرنا به في حق الكافر، فنبغض ذواتهم، وكل ما يصدر عنها.

وأمّا المؤمن العاصي فإنا لم نؤمر ببغضه بغضًا يطفئ محبة ذاته ومحبة إيمانه بالله تعالى، ومحبة إيمانه برسوله ﷺ ومحبة إيمانه بجميع الرسل، ومحبة إيمانه بجميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومحبة إيمانه بسائر الكتب السماوية، ومحبة إيمانه باليوم الآخر وكل ما فيه من حشر ونشر، وجنة ونار، وصراط وميزان، ومحبة إيمانه بجميع الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومحبة إيمانه بالقدر خيره وشره، وهكذا نحبه على كل وصف ممدوح فيه، فإذا تقدمت

محبتنا فيه على هذه الخصال الحميدة لم يمكن أن يدخل بغضه في قلوبنا أبدًا، وإنما نبغض أفعاله وندعو له بخير.

ولا سيما إن نظرنا إليه بعين الحقيقة، وأكثر الناس إذا أرادوا أن يبغضوا العاصي توجهوا إليه أولاً قبل كل شيء بالبغض، وغفلوا عن الخصال التي توجب محبته، فلا يستحضرونها في عقولهم، فيسكن بغضه في قلوبهم ويسري ذلك البغض إلى ذاته، فتكون هي المبغوضة في نظرهم، وذلك لا يحل ولا يجوز، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الذي يتميز عن الناس في مركبه وملبسه وداره ومأكله قبيح.

فقلت: وما سبب قبحه؟

فقال: إنه يشغل قلوب الناس بالالتفات إليه، فيقطعهم عن الله تعالى، فيكون تميزه عنهم سببًا في قطعهم.

فقلت: فالمحجوبون الذين يلتفتون إليه مقطوعون، فلا يضرهم التفاتهم إليه.

فقال: يزيدهم قطيعة على قطيعة.

قال: وأيضًا فإن الروح تنفر من الذات المشتغلة بهذا التميز؛ لأن بذلك التميز يحصل للروح ذلة ومسكنة، فتكره فعل الذات وتفر عنها، فلا تسددها ولا ترشدها إلى ما يليق بها مع خالقها، فيكون ذلك سبب هلاكها.

* **قلت**: فللتمييز حينئذ آفتان:

ـ آفة في نفسه.

ـ وآفة في غيره.

ثم قال بعض الحاضرين: وكان جوادًا سخيًا كريمًا يا سيدي، أرأيت حب الصدقة إذا أوقع صاحبها في هذا التميز، أيضره ذلك أم لا؟

فقال ﷺ: نعم [يضره]، وينبغي له إخفاء الصدقة ما أمكنه.

قال ﷺ: وأعرف رجلاً تصدق فيما بين المغرب والعشاء بخمسة وعشرين مثقالاً على فقراء لا يحصون ولم يعرفه واحد منهم.

فقال السائل: يا سيدي، فإن أخفاها ولكن بقيت نفسه تتشوف إليها وتفرح بها؟

فقال ﷺ: إن كان تشوفه إليها على وجه الفرح بها ورؤيتها عظيمة في عينه، فجعلت نفسه تعجب بها، فهذا لا يمنع الفعل والإخراج؛ لأن الشخص المتصدق قد يصادف من نفسه غفلة عن هذا النظر فتخرج الصدقة سالمة فيتقبلها الله تعالى.

قال ﷺ: وإنما طوّل الله أعمارنا حتى صرنا نعيش الستين والسبعين عامًا لهذه الفائدة، وهي أنه لعلنا ندرك في العمر الطويل ساعة من ساعات القبول؛ وذلك لاستيلاء النفس والشهوة علينا حتى لا يكاد يصفو لنا فعل ولا يخلص لنا عمل.

قال: فمثل هذه العلة لا تمنع من الفعل، وأمّا إن كان تشوف النفس إليها على وجه الرياء بها وإذا فعلها صاحبها لأجل الناس، فهذه علة تمنع من الفعل وتصيره معصية، وإن كانت صورته صورة طاعة فيما يرى الناس.

* **قلت**: أشار ﷺ بهذا التفصيل إلى ما ذكره الأئمة ﷺ من أن خوف العجب لا يمنع العمل وإنما يمنعه الرياء، فرضي الله عن هذا الشيخ ما أوسع دائرة علمه، وإني لأتعجب من ذلك كثيرًا، ومما يزيدني تعجبًا على تعجب كونه عاميًّا أميًّا، وتصدر منه هذه العلوم التي لا تطاق ولا تحصى، ولا يحتاج عند إيرادها إلى تفكر أصلاً، فسبحان من أمده بهذه العلوم اللدنية والمعارف الربانية.

ثم أعاد عليه السائل السؤال، فقال: يا سيدي، أخبرنا كيف يكون عملنا من صدقة وغيرها خالصًا لوجه الله تعالى؟

فقال ﷺ: كل ما عملته بقصد الأجور والحسنات فهو عمل لغير الله تعالى، ولابد أن يعرض فيه الوسواس، فتقول في نفسك: إذا تصدقت بالقصد السابق لعل المتصدق عليه ليس أهلاً للصدقة، وإن كان أهلاً فلعل هناك من هو أولى وأحق بها منه وأقرب إلى الله تعالى في قبولها وقد فاتني، إلى أن تختم وسواسك بقولك: وهل قبلها الله مني أم لا؟ وكل عمل دخله وسواس فلا نصيب فيه لله تعالى؛ إذ الوسواس من الشيطان، والشيطان لا يقدر على القرب من العمل الذي هو لله ﷻ.

فقال السائل: يا سيدي، وإذا تصدقت لا بقصد الأجور والحسنات ولكن بقصد القرب من الله تعالى، فهل يضر ذلك أم لا؟

فقال ﷺ: نعم يضر، وقصد القرب علة من العلل، والعمل لأجله إنما صدر لغرض من الأغراض.

قال: وإنما معنى العمل لله خالصًا عند أهله هو أن يعلموا ما ربهم عليه من أوصاف الجلال والكمال، والكبرياء والعظمة، وما له عليهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى، فيرونه أهلاً لأن يخضع له، ومستحقًا لأن يخشع منه، ولا يخطر ببالهم حظ من حظوظ نفوسهم قط فضلاً عن أن يكون علمهم لأجله، بل يرون أنهم لو عبدوا ربهم أبدًا، وأطاعوه سرمدًا بأشق عبادة تصوروا ثقل تكليف يفرض مع تطاول الأعمار واستمراره عليه ما دامت الأعصار، ما قاموا بشيء من الحق الواجب للرب ﷻ على المربوب، وإنما يتصور من العبد أن يعمل لحظوظ نفسه إن لو فرغ من القيام بحقوق ربه، وإذا لم يستطع أبدًا أن يوفي بواحد منها فكيف يطمع أن يوفي بها كلها؟ أم كيف يطمع أن يتفرغ للعمل لحظوظ نفسه؟

قال ﷺ: وإذا دخل أهل الجنة الجنة، وازدادوا معرفة في خالقهم ﷻ ندموا كلهم على ما قصروا في جنب الله.

قال ﷺ: وإذا تأملت ما قلناه علمت أن العمل للأجور قاطع عن الله تعالى وعن القيام بحقوقه، ولهذا كان لا يزيد صاحبه إلا بعدًا من الله ﷻ.

قال: وإذا عبدت الله تعالى لكونه أهلاً لذلك لم يمكن أن يدخل عبادتك وسواس أبدًا.

فقلت: يا سيدي، فإذا كان المتصدق يرى حين إخراج الصدقة أن المال لله لا له، وذاته هي لله لا له، وذات المسكين المتصدق عليه لله، فهو يرى أن الكل لله، فيخرج صدقته على هذه النية ولا يرى لنفسه شيئًا أصلاً، فكيف تكون صدقة من هذه صفته؟

فقال ﷺ: من أحسن ما يكون، وقد سبق ما قلنا لكم في حكمة تأخير بعثة الرسول ﷺ إلى أن بلغ أربعين سنة.

* قلت: ولعلنا نذكره فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

ثم حكى لنا حكاية وقعت له مع رجل بهلول، وحاصله أنه قال ﷺ:

كنت أعرف رجلاً بهلولاً وهو من الصالحين، وليس عنده في فصل البرد الكسوة التي تقيه من البرد، [وكان البرد شديدًا] فكان يهمني أمره وتدخلني الرحمة و[الرقة][1] عليه كثيرًا.

قال: وربما تصدق عليه بعض الناس بكسوة تقيه من البرد، فيجيء من لا يخاف من الله ﷻ فيزيلها عنه ويذهب بها.

قال: فجئته بكسوة تقيه من البرد، وكان يبيت في بعض [الأرحية][2] متى يطحن فيها، فجئت ذلك المكان فوجدته فيه فكلمته فأجابني.

فقلت له: أتيتك بكسوة لتلبسها.

فقال: لا أقبلها ولا ألبسها، وكنت تصدقت بها عليه بنية أن يرزقني الله حاجة كذا، ولم يعلم بذلك أحد إلا الله ﷻ فلما [سمعت منه الإباية][3] أعدت عليه القول وكررته مرارًا، فعند ذلك قال: إني لا ألبس الكسوة التي أخرجت لحاجة كذا، وذكر الحاجة بعينها، وإنما ألبس ما هو لله خالصًا، فذهبت وتركتها بقربه، ووصيت أهل الرحى عليها وأن يلبسوها له، فبقيت هناك أيامًا وما لبسها قط، فإذا كان هذا مخلوقًا وأبى من قبول ما هو لغير الله، فكيف بالخالق ﷻ والله تعالى أعلم؟!.

وسمعته ﷺ **يقول:** كان بعض العباد المفتوح عليهم في العبادة مريضًا بعلة الاستسقاء، فلما أحس بالموت وقد بقي على عقله؛ لأن غالب من يمرض بعلة الاستسقاء يبقى على عقله، فلما شاهد ألم الموت وعلم أنه ما مر عليه في عمره مثله أبدًا، أكسبه ذلك خوفًا من الله تعالى، وامتلأ قلبه رعبًا من لقائه ﷻ فوقع في فكره ما سلف من العبادة الكثيرة، ففرح بها وسخن قلبه بها، وجعلها في مقابلة ذلك الخوف، فأكسبه ذلك أمنًا وهناء في قلبه، فلما علم الله منه أنه اعتمد على عبادته سلبه الله ﷻ فمات مسلوبًا، والعياذ بالله.

قال: وكم في جهنم من عابد مثله، أدخلهم الله جهنم لاعتمادهم على عملهم.

---

(١) في (ب): الرأفة.

(٢) في (ب): الطواحين.

(٣) في (ب): علمت منه المنع.

قال ﷺ: ولا شك أنه لا يعتمد على العبادة إلا من فعلها بقصد الأجر وحظ النفس، ولو كانت لله خالصًا لنفعتهم في هذا اليوم العظيم.

قال ﷺ: وعبادة العارفين بالله تعالى إنما هي لأجل وجوده الكريم وذاته الرفيعة، فيفعلونها إجلالاً وتعظيمًا، ومهابة وتوقيرًا، ويعلمون أنهم لو عبدوا طول عمرهم ونطحوا الصخور بجباههم دائمًا سرمدًا ما وفوا بشيء من حقوق الربوبية، فكيف يطلبون لأنفسهم أجورًا؟! لأنه لا يطلب الأجر إلا من رأى أنه قام بالحق وأدى الواجب عليه، وهم ﷺ يرون أنفسهم مقصرين ما قاموا لله بشيء، مع أنهم يشاهدون الفعل الصادر منهم إنما هو منه تعالى لا منهم، فكيف يطلبون الأجر على ما فعله غيرهم؟!.

فقلت: فأيّ شيء سلب هذا العابد؟ أمّا المعرفة فإنها ليست عنده، فإنه لو كان عنده منها شيء ما اعتمد على عمله، فالمسلوب إذًا إمّا الإيمان وإمّا الحسنات.

فقال ﷺ: المسلوب عنه هو الحسنات التي فعلها، فإن نظره إليها واعتماده عليها أزال عنه جميع الرحمات المترتبة عليها، ورجعت تلك الحسنات بأسرها معاصي وذنوبًا يعاقب عليها في جهنم.

فقلت: أفلم يكف إحباطها بالنظر إليها في [صوبته][1] حتى رجعت ذنوبًا.

فقال ﷺ: النظر إليها هو الذي صيرها ذنوبًا، فإنك إذا رأيت حربة قصدتك وتراها داخلة في جنبك لا محالة، فإذا أردت أن تتقيها بدرقة فإنك لا تتقي بها حتى تقطع وتجزم بأن الدرقة أقوى من ضرب الحربة، حتى إنها تردها وترد غيرها، ولو كنت تعلم أن الدرقة لا ترد الحربة فإنك لا تتقي [بها][2]، وإنما تستجير بصاحب الحربة، وتدخل في حماه، وتطلب رضاه لعله يرحمك حتى يرد حربته عنك.

قال: فكذلك هذا العابد فإنه ما جعل عبادته في مقابلة ذلك الخوف، وسكن قلبه ودخله الأمن والهناء حتى كان يرى أنها أقوى مما لله عليه من الحق الواجب، وأقطع منه وأمضى حتى ترده وترد غيره، وهذا غاية الضلال.

---

(١) في (ب): عقوبته.

(٢) سقطت من (أ).

قال ﷺ: وأيضًا فإن العبادات بأسرها والطاعات كلها والشرائع بجملتها إنما نصبها الله تعالى لعباده؛ لتقام كلمة التوحيد، وتحصل المعرفة في قلوب الخلق بربهم، فإذا حصلت هذه المعرفة حصل المقصود، وإذا لم تحصل فلا عبرة بالوسيلة عند فوات المقصود.

قال: والمعاصي إنما حرمت؛ لأن فيها قطعًا للعبد عن الله ﷻ فإذا كانت الطاعات تقطع العبد كانت معاصي بلا إشكال، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن في أرباب [المخزن][1] وأهل الظلم من هو مؤمن متعلق القلب بربه ﷻ وفيهم من هو منقطع عن الله ﷻ وعلامة ذلك الانقباض والانبساط.

ـ فمن كان منهم منقبضًا متغيرًا يعلم أنه مخالف لأمر ربه مطيع لغيره، متكدر البال متغير الحال، فذلك هو الأول فهو من الناجين في الآخرة بعد الحساب والعقاب، والملام والعتاب، إلا أن يعفو الله ﷻ.

ـ ومن كان منهم حالة ظلمه منبسطًا فرحًا مسرورًا، لا حزن عليه ولا خوف فذلك هو الثاني، فهو يستحلي المعصية وظلم العباد كما يستحلي الجُعل من النجاسات وأكل القاذورات.

* **قلت**: وقد سبق أنه من أشد الناس عذابًا يوم القيامة، ذكر هذا الكلام لرجل استشاره في خلطة [المخزن][2]، وأنه إن لم يخالطهم خاف على نفسه، فدله على الخير وأوصاه بالمساكين، وذكر له الكلام المتقدم وزاده زيادة.

فقال: إن المؤمن كطير نزل على أرض نجسة فينقبض ويضم جناحيه، وعلى أرض طاهرة فينبسط ويفتح جناحيه ويسعى في الطلب.

وقال له: إن أهل الانقطاع ـ والعياذ بالله ـ إذا غصبوا دراهم وجعلوها في جيوبهم، وكان على تلك الدراهم اسم من أسماء الله تعالى، فإذا جاء من هو متعلق بربه تعالى واحتال على تلك الدراهم بالطلب أو غيره حتى أخذها من ذلك المنقطع، فقد أنقذ ملائكة كرامًا على الله ﷻ.

---

(١) في (ب): الأحكام والدولة.

(٢) في (ب): الدولة.

وذلك أن على كل حرف من أسمائه تعالى ملكًا، وعلى كل اسم من أسمائه تعالى ملكًا فيه قوة سبعين ملكًا، فلما دامت الدراهم التي فيها الأسماء عند ذلك المنقطع فإن كل ملك من أولئك الملائكة يكون بمنزلة طائر قد أخذ وكتف وأخرج رأسه من تحت جناحه، فإذا جاء المتعلق بالله فأخذه بحيلة من الحيل، فإن الملك يحصل له فرح وسرور، ويزول ما به من الضيق لكراهتهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأهل الانقطاع، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إنما أخذ العبد الضعيف وكان تدميره في تدبيره حيث عزل [نفسه] وذاته عن الله تعالى، وجعل ينظر في أمرها بالتدبير والقيام عليها، ويبذل مجهوده في تحصيل مطالبها، وهو في ذلك كله غافل عن الله تعالى، فوكله الله تعالى إلى نفسه، وجعله يشعر بالأغيار كما انقطع إلى الأغيار، فتراه يتألم بالبرد والحر، وتضره الجراحات وغير ذلك من أنواع الأذيات، ولو أنه لم يعزل نفسه عن ربه ﷻ وجعل زمامها بيد خالقه، وقطع النظر عن غيره، ومحا من قلبه جميع الأغيار، فإنه لا يحس حينئذ بألم من الآلام ولو كان يمشي على حسك الحديد والسفافيد.

قال: ولأجل الغفلة عن الله ﷻ عظم الحمل على العبد وجاءته التكاليف، وأرسلت إليه الرسل بالشرائع ليردوه عن الغفلة إلى الله ﷻ ولولا الغفلة عن الله تعالى لكان البشر مثل الملائكة ولم يحتاجوا إلى تحمل هذه التكاليف الشاقة، ولولا الغفلة عن الله تعالى لم تكن جهنم أصلاً، ولولا الغفلة عن الله تعالى لشاهد العبد أفعاله مخلوقة لربه ﷻ فلم تكن له نفس يشاهدها فضلاً عن أن ينسب إليها شيئًا، وإذا كان بهذه المثابة فإنه يكون فانيًا دائمًا، فكيف يكلف مثل هذا؟! والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: أحمق الناس من يشد في الذي يمشي ـ يعني: الذي يفني ـ وهو الدنيا وما يتعلق بها، وأعقل الناس من يشد في الذي يبقى وهو الحق ﷻ فإن الفاني إذا قبض في الفاني لم ينفع أحدهما الآخر، وإذا قبض الفاني في الباقي صار الفاني باقيًا.

قال ﷺ: والناس يقولون: لا دواء للموت، وهو له دواء ودواؤه ما ذكرناه لا دواء [له] غير ما ذكرناه، ثم أقسم بالله وأكد قسمه وكرره مرارًا.

وقال: إن العبد إذا شد في الله ﷻ شدًا عجيبًا ظاهرًا وباطنًا، فإنه لا يفنى ولا يموت الموتة التي يعرفها الناس.

قال ﷺ: وغالب أهل الديوان إذا ماتوا فإنهم يغسلون أنفسهم، فترى ميتًا على النعش ومغسلاً وهما شيء واحد، والله تعالى أعلم.

ولنختم هذا الباب بحكاية عجيبة سمعتها منه ﷺ: وذلك أني كنت أتكلم معه ذات يوم فذكرت له تعظيم الناس للعباد المنقطعين في الكهوف وجزائر البحر، ومدحتهم كثيرًا، وقلت: إنهم انقطعوا لعبادة الحق ﷻ وتجردوا من جميع الأغيار.

قال ﷺ: أحكي لكم حكاية فاسمعوها، والله حسبي وسائلي إن زدت فيها شيئًا.

فقلت: معاذ الله أن يقع هذا في أوهامنا أو يهجس في خواطرنا.

قال ﷺ: كنت ذات يوم في [المصلى] بباب الفتوح مع سيدي منصور ـ يعني: القطب ـ فبدا لنا أن نذهب إلى جزيرة في البحر الكبير الذي يضرب في مدينة «سلا».

قال: [فضربنا] فذهبنا إليها فإذا هي جزيرة فيها قدر ميل، وفيها عينان من الماء العذب، ووجدنا فيها رجلاً يعبد الله تعالى وسنه نحو الأربعين سنة، وفيها بيوت منحوتة من الحجر، وفي وسط البيوت بويتات صغار كهيئة البيوت الصغار التي في داخل الحمام.

قال: ولا أدري من نحتها؛ لأن الموضع بعيد من العمران جدًّا، ولا يبلغه أحد، وقد تبلغه السفن أحيانًا، وفيها من الأشجار نوع يشبه ثمره ثمر اللوز إلا أنه يخالفه، ونوع آخر يشبه شجر التغزاز[1] المعروف عندنا إلا أنه أقصر منه وله ورق عريض أخضر دائمًا، فنظرت إلى الرجل وإذا قوته ذلك الثمر الذي يخرج من النوع الشبيه باللوز، وذلك الورق الأخضر الذي في النوع الآخر الشبيه بالتغزاز، فهذا قوته دائمًا، ونظرنا إلى لباسه فإذا هو قد عمد إلى قضبان ذلك النوع الشبيه بالتغزاز وهي قضبان رقاق، فضفر بعضها مع بعض حتى جعل منها مثل الحزامة، فاحتزم بها وستر عورته والباقي بلا سِتر.

فكلمناه وقلنا له: كم لك في هذا الموضع؟

فقال: لي فيه نحو الأربعين سنة.

فقلنا له: سنك كله قدر الأربعين، فمتى جئته؟

---

(١) هي ثمار شجرية صغيرة بداخلها توجد نواة صغيرة.

قال: جئته مع أبي، ولي [من العمر] نحو من خمس سنين وأنا صبي صغير، فبقيت مع أبي نحو الخمس والعشرين سنة حتى مات، فدفنته هناك.

فقلنا له: أرنا قبره لنزوره، فأرانا قبره، فدعونا له ثم جعلنا نتكلم معه فوجدنا لسانه ثقيلاً جدًّا؛ لقلة مخالطته للناس وهو صغير، ووجدناه يتكلم بالعربية؛ لأنه من القوم المجاورين لتونس وهم يتكلمون بالعربية.

فسألناه عن الإيمان فوجدناه يعرف الله إلا أنه يعتقد الجهة، فنهيناه عن ذلك وبيَّنَّا له الصواب، ووجدناه يعرف رسول الله ﷺ وأنه سيد الأولين والآخرين، ويعرف أبا بكر ﷺ ويعرف فاطمة [الزهراء] بنت الرسول ﷺ.

وسألناه عن ابنها سيدنا الحسن فلم نجده يعرفه.

وسألناه عن شهر رمضان فما وجدناه يعرفه، وذكر أنه يصوم ثلاثين يومًا ولكنها مفرقة في السنة، فبيَّنَّا له وجوب صوم رمضان وعيَّنَّا له موضعه من السنة.

وسألناه عما يحفظ من القرآن فلم نجده يحفظ منه سوى: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:٢-٣] ﴿**الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحة:٧] هكذا يحفظ هذا القدر مصحفًا.

فقلنا: وما عبادتك؟

فقال: الركوع والسجود لله ﷻ.

فقلنا له: هل تنام؟

قال: أنام عند سقوط الشمس للغروب إلى أن يظلم الحال، وما عدا ذلك كله ركوع وسجود.

فقلت له: هل لك أن تخرج إلى بلاد الإسلام وتعاشر أهله، فإنك على دينهم وتؤمن بنبيهم ﷺ؟

فقال: نعم أنا مسلم من جملة المسلمين، ولكني لا أخرج عن موضعي هذا حتى أموت.

قال: وكنا إذا كلمناه وقربنا منه عند الخطاب يفر منا؛ لعدم إلفه بالناس.

قال: وهو لا يطيق أن يأكل من طعامنا، ولا تطيقه ذاته لطول إلفها بغيره.

قال: ونظرنا فإذا نحن من ثمن مد من الريالات عنده وفيه بعض المثاقيل من الذهب.

فقلنا له: من أين لك هذا؟

فقال: أرباب السفن يأتون في بعض الأحيان إلى هذه الجزيرة، فيروني فيعطونني شيئًا من الريالات والدنانير بقصد الزيارة والتبرك، ويطلبون مني معروفًا فأدعو لهم وينصرفون.

فقلنا له: أعطنا هذه الدنانير والريالات فإنه لا حاجة لك بها؛ لأنك لا تنوي أن تبني بها دارًا، ولا أن تتزوج بها، ولا أن تكتسي بها، فما لك بها من حاجة، فنأخذها نحن فلنا بها حاجة.

فأبى وقال: دراهمي لا أعطيها لكم.

قال: وبقينا معه ساعة طويلة بقصد أن نعلمه شرائع الإسلام، ثم ودعناه وانصرفنا، فلما رآنا نمشي على ظهر الماء بأرجلنا ولا يصيبنا من الماء شيء، ولم يحصل لنا غرق جعل يستعيذ بالله منا، وظن أننا من الشياطين.

قال ﷺ: وهو إلى الآن في جزيرته في قيد الحياة، وذلك في الثاني من ذي الحجة مكمل تسعة وعشرين ومائة وألف.

*** قلت: وفي هذه الحكاية مواعظ:**

الموعظة الأولى: معرفة النعمة الحاصلة لنا في مخالطة المؤمنين، فإن ذلك يوصلنا إلى معرفة شرائع الإسلام، وأحوال النبي ﷺ وسيرته وسيرة أصحابه ﷺ وكيف كان زمانه ﷺ وزمان أصحابه ﷺ إلى غير ذلك من الأمور التي يزيد بها الإيمان، فإن هذا الرجل لما فاتته مخالطة أهل الإسلام فاتته معرفة هذه الأحوال.

حتى قلت لشيخنا ﷺ: لقد أضرَّ به أبوه الذي قدم به إلى هذه الجزيرة، وقطعه عن

أهل الإسلام، ولو تركه معهم لكان خيرًا له وأسعد به.

فقال لي: صدقت، فها هنا تعرف قيمة المؤمنين ولو كانوا عصاة، فإن معرفتهم بالدين وشرائع الإسلام لا يعدلها شيء، فالحمد لله على مخالطة أهل الإسلام ومزاحمتهم في الأسواق ونحوها، ولا سيما المزاحمة في مواطن الخير، ولهذا يقول الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني ﷺ: إن النظر في وجوه المؤمنين يزيد في الإيمان.

الموعظة الثانية: معرفة النعمة التي أنعم الله بها علينا في الأكل والشرب والكسوة، والنوم والراحة، والنكاح والتناسل، وغير ذلك من النعم التي حرمها هذا المتعبد، فإنه كما حرم معرفة هذه النعمة حرم هذه النعم أيضًا، ولو خالط أهل الإسلام لتنعم بهذه النعم وشكر الله عليها، وكان شكره عليها موفيًا وقائمًا بعبادته في تلك الجزيرة طول عمره.

الموعظة الثالثة: ما يغتر به كثير من الناس في أمر المنقطعين في الفلوات والخلوات، واعتقادهم الكمال فيهم، وأن المقام الذي يبلغونه لا يبلغه الأولياء العارفون المنغمسون في الناس.

وقد سمعت الشيخ ﷺ يقول: إني أنظر أحيانًا إلى أنوار الإيمان الخارجة من الذوات حتى تتصل بالبرزخ، وهي أنوار مختلفة بالرقة والغلظ، والرقة تدل على ضعف الإيمان، والغلظ على قوته، ثم ننظر إلى العباد الذين في الكهوف والفلوات فنرى الرقة غالبة على أنوراهم إلا من قلَّ منهم، وننظر إلى العامة فنرى أنوارهم أحسن من أولئك المنقطعين؛ لاعتماد العوام على فضل الله ﷻ واعتماد العباد غالبًا على عبادتهم.

قال ﷺ: والعابد لا ينجو من عبادته إلا إذا كان يراها من ربه باطنًا، ويدوم ذلك على فكره، فإن غاب ذلك عن فكره وجعل يراها منه فهو إلى العطب أقرب منه إلى السلامة.

ولما سمعت من شيخنا ﷺ هذه الحكاية حصل لي رقة وخشوع بمعرفة النعم التي أنعم الله بها علينا، ونحن عنها غافلون.

* **ثم قلت للشيخ** ﷺ: ولم لم تأخذوا بيد هذا الرجل وتخرجوه من الجزيرة إلى مدينة من مدن الإسلام [ليرتاح][1] ويرحمه الله تعالى؟

---

(١) في (ب): ليربح.

فقال ﷺ: ذلك مقامه الذي أقامه الله فيه، فسبحان من له هذا الملك.

قال ﷺ: ومن نظر إلى العجائب التي على وجه الأرض كفته ولم يحتج في توحيد ربه إلى شيء آخر، فإنه يرى على وجه الأرض خلائق مجتمعين؛ يعني: من جملة من على وجه الأرض، فيهم العاقل وغيره، والمنعم والمحروم، وهذا يقتل هذا، وهذا يرحم هذا، وهذا يجول بخواطره في أمور الدنيا، وهذا في أمور التجارة، وهذا في أمور جيرانه، وهذا في أمور العلم، وهذا في أمور الآخرة.

قال ﷺ: وأخبرني شيخي سيدي عمر بن محمد الهواري أنه كان جالسًا يوم الخميس بباب المحروق، وجعل ينظر إلى بواطن الخارجين من الباب، فخرج رجل فنظر إلى باطنه فإذا هو ليس فيه إلا التفكر في فلانة حبيبته، كيف يظفر بها، وكيف يكون أمره في ذلك، واستولى عليه هذا التفكر حتى أذهله عن غيره.

ثم خرج آخر فنظر إليه فإذا هو قلبه على مثل صفة الأول إلا أنه متعلق بصبي.

ثم خرج ثالث فنظر إليه، فإذا قلبه متعلق بالدنيا وقد استولى عليه الفكر فيها حتى صار لا يشعر بغيرها.

ثم خرج رابع فنظر إليه فإذا باطنه متعلق بمحبة شرب الخمر والتلهف عليه، لا يجول في فكره غير ذلك.

ثم خرج خامس فنظر إليه فإذا فكره يجول في الآخرة وأمورها، وغلب ذلك عليه حتى ظهر عليه.

ثم خرج سادس فإذا قلبه معمور بمحبة العلم وقراءته، لا يجول خاطره في غير ذلك.

ثم خرج سابع فنظر إليه فإذا فكره لا يجول إلا في محبة ركوب الخيل واستولى عليه ذلك حتى أنساه غيره.

ثم خرج ثامن فإذا فكره لا يجول إلا في محبة الحرث، وكيف يسعى فيه، لا يتفكر في غيره.

ثم خرج تاسع فإذا فكره معمور بمحبة سيد الوجود ﷺ واستولى ذلك عليه حتى صار فكره لا يجول إلا في أحوال النبي ﷺ كيف كان قبل البعثة وكيف كان بعدها، ثم كيف كان بعد نزول الوحي عليه، ويجول في سكناه بمكة وسكناه بالمدينة ﷺ.

ثم خرج عاشر فنظر إليه فإذا قلبه معمور بمحبة الله ﷻ رب العالمين وخالق الكل أجمعين، فيجيل الفكر في عظمته وجلاله، وتنزهه وتقدسه، وما له من عليّ الصفات ﷻ.

قال الشيخ سيدي عمر ﷺ: ثم نظرت إلى الأمر الباطن الحاكم فيهم، الناشئ عن إرادته تعالى فيهم، فوجدته في بواطنهم كالحبل الذي يقودهم إلى مراد الحق ﷻ فيهم وهم عنه غافلون، يحسبون الفعل منهم والاختيار موكولاً إليهم.

قال: فحصلت لي غيرة كبيرة، وعلمت أنه لا إله إلا هو، وأنه تعالى لا شريك له في ملكه، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] وأن الخلق في غفلة كبيرة وحجاب عظيم.

* **قلت**: فمثل هذا هو تفكر العارفين ﷺ.

وقد سمعت الشيخ ﷺ **يقول**: قد يمر رجلان بموضع من المواضع فلا يمشيان فيه إلا قليلاً حتى يغفر لأحدهما.

فقلت: ولم؟

فقال: لمعرفته كيف يتفكر في مخلوقات الله، وصاحبه الذي يماشيه ساهٍ لاهٍ، فهذا ـ وفقك الله ـ ما ظهر لنا أن نكتبه من كلام الشيخ ﷺ في هذا الباب، وهو باب دخول الظلام على العباد وأفعالهم ودخول الأنوار عليهم.

فإذا انضم هذا إلى ما سبق في تعبير الرؤيا من درجات الظلام العشرة التي هي:

ـ درجة سهو المكروه.

ـ ودرجة سهو الحرام.

ـ ودرجة عمد المكروه.

ـ ودرجة عمد الحرام.

ـ ودرجة الجهل البسيط في العقيدة الخفيفة.

ـ ودرجة الجهل المركب فيها.

ـ ودرجة الجهل البسيط في العقيدة الثقيلة.

ـ ودرجة الجهل المركب فيها.

ـ ودرجة الجهل البسيط في الجناب العلي ﷺ.

ـ ودرجة الجهل المركب فيه.

وعلم الواقف على كلامنا ما ذكرناه في ذلك الباب، وفي هذا الباب حصل على معرفة كبيرة، نفع الله بها الوارد والصادر ببركة الشيخ ﷺ آمين والحمد لله رب العالمين.